



توقى الشاعر

هذا شاعر نبه الجيل باسمه ، وعقد شعره على جبين مصر تاج الزعامة في الشعوب العربية ، وكانت قصائده بالألمس القريب متطلع أدباء الشرق ومترقب كتابه وشعرائه . شاعر تهيأ له من أسباب الشعر ما لم يتهيأ لغيره ، وحبته العناية بما لم تحب به شاعراً عربياً قبله من مواهب فنية خصه الله بها ، وحظوظ سعيدة مقدره سمت به الى منزلة سامقة من المجد وذروة شاهقة من الشهرة والصيت الذائع .

ولقد عبر شاعرنا محيط الحياة بين عبرى الميلاد والموت محوطاً باعجاب الكثيرين من الخاصة والعامة ، وشهد بعينه تألق نجمة في سماء البيان، وهو ما لم يتح لأفذاذ الأدباء والفنانين في هذا الشرق العريق في أدبه وفنه . وبلغ ببعض الصحف في مصر منذ سنوات قلائل أن خصت كل قصيدة ينحصرها بنشرها بمائة من الجنيهات ، وذلك ما لم نسمع به أيضاً من عهد ملوك العرب حتى في أوساط الغرب الأدبية وهي التي لم تضن على العلم والأدب والفن بالجليل من التقدير الأدبي أو المادى .

ولقد عجل القضاء بشوق الى نهاية كل حى وهو لا يزال ينفتح الأدب بنفحات شعره ، وحطم الموت يراعه وهو ممسك بها بين قرطاسه ومحبته في فترة مرض غير رفيق وضعف شيخوخة ماكدراً من صفاء تلك القرينة العماحة ، ولا خدشا مرآة ذلك الذهن المشرق الوقاد .

وفوجئنا بنعيه بعد أيام قلائل جلسنا وياه على مائدته في رفقة من صفوة أدباء مصر نتحدث في شؤون الأدب ونعدّ للشعر مستقبلاً ذهبيّ الاحلام ، فراغنى نعيه وجزعت لمصابنا فيه بعد أن فقد الشرق به وبمحافظ ألمع كوكبين في سماء الشعر انكبدرا متعاقبين قبل أن يتم عام دورته .

ورحتُ أسألك نفسي: « هل أدى شوقي رسالة الشاعر الى عصره ؟ » ذاك سؤال أحاول الآن أن أضع جوابه في حيرة رجعت بأسبابها الى قصر الزمن الذي مضى على انقطاعه عنا ونحن الناس نتأثر بحياة الحى الزائل ولو إلى حين ، وقد تلبسنا من حياته الماضية القريبة أحوال يكون لها في أحاديثنا وكتاباتنا أثر لا نفطن اليه اليوم وقد لا نقر أنفسنا في الغد على ما أصدرناه من أحكام واستسغناه من آراء .

ورجال الأدب في مصر لا يزالون في مضطرب أفكار لا تعرف هديها الى ما تصبو اليه من المثُل العليا ، ولا يزال معترك الجدل حامى الوطيس بين دعاة المدرستين الحديثة والقديمة بل بين أنصار المدرسة الواحدة في تعريف مقاييس الشعر وتكييف صورته وتحديد ألوانه .

بيد أنى أدفع برأى غير فطير نماء شعور برىء أقوت أحكامه دراسة ترجع الى أدب لا يتعصب لتقديم ولا لجديد .



من دلائل الشاعرية في الشاعر إفصاح بيانه عن فكرته ووضوح مراميه في شعره وأداء الفاظه لمعانيه أداءً وافياً لا اضطراب فيه ولا غموض .

فاذا وفقق الى ذلك كله في أسلوب رشيق وديباجة صافية وسباق مرتب فهو شاعر بطبعه وسليقته .

وكان شوقي رحمه الله أقدر شعراء عصره فسا ظفر بمعنى جيد الا وأفصح عنه بألفاظ مختارة تقع في الأذن موقع النغم الساحر والصوت الرخيم . فاذا ما كان المعنى مبتكراً رائعاً فقد نفذ بأنغامه وموسيقية بيانه الى قارات النفوس وشغاف القلوب وهذا ما لم يتوفر في شعره كثيراً .

وديباجة شوقي أشرق ما تكون حتى لكأنك تقرأ المختار لفحوله شعراء الجاهلية والاسلام ، وأسلوبه جامع لحاسن الاساليب الشعرية البديعة وإن لم يبلغ شأواً البارودى في قوة الحبك ودقة الاحكام .

يترسل شعر شوقي في سبعة جداول شعرية: (١) شعر المديح والثناء و (٢) شعر الحب و (٣) الشعر الوصفى و (٤) الشعر الاجتماعى و (٥) الشعر التاريخى و (٦) الشعر الدينى و (٧) الشعر القصصى . ونمر على شعر المديح لأن الشاعر اقطع عنه من أمدٍ بعيدٍ

وليس فيه ما هو جدير بالدراسة أو النقد ، وإن حوى ألواناً من الوصف والغزل والنسيب .

أما الرثاء فقد أجاد شوقي فيه وأبدع ، بل لا أعدو الحقيقة إذا قلت إنه المنفرد فيه منذ كان شعره عربياً إلى اليوم ، أما شعر الحب فهو شعر تضجّ له النفس ساخطة وتشارك الوجدان في استهجائه والنفرة منه ، والحق أن شوقي بعيد عن الحب بعد الباطل عن الحق وليس في بعضه إلا القليل النادر الذي يترسل مع النفس ويرضى به الوجدان ، وهو لا يعد في شعره إلا بنسبة الماس إلى حجارة الأرض . أما شعر الوصف فبعضه شعر تجديد والبعض الآخر شعر تقليد تغلب فيه الصنعة ويبدو التكلف واضحاً جلياً . ومن الغريب أن تجد للشاعر في هذا الباب صورتين مختلفتين كل الاختلاف : إحداهما تمت ببيتاتها وألفاظها إلى الشعر العربي القديم والآخرى تتجه بمعانيها إلى الشعر الغربي ، وقصيدته في شكسبير جمعت الصورتين فجاءت آية من آيات الشعر العصري الحديث . بيد أن شوقي لم يوفق مرة واحدة في وصف صورة من صور الطبيعة ، وهي في رأيي ينبوع صفاء الشاعرية وروحانيتها والمعين الذي لا ينضب للجمال والملمم الخالد الفن الذي يجدد بريشته وأصباغه شباب الحياة ويملا كتابها من سحره وفتونه وعبقريته خياله ، وترى في قصيدة وصف الربيع أو غيرها ما لا تهنّز له نفس زاولت مهنة الحياة الشعرية وشغفت بالفن والجمال .

أما الشعر الاجتماعي والشعر التاريخي فتفوقه فيهما تفوقه في شعر الرثاء ، وقصيدته في صدى الحرب العثمانية ويربو عدد أبياتها على الثلاثمائة من وزن وقافية واحدة تعدّ من معجزات الشعر الحديث . وهي ملحمة رائعة تفيض بثتى مظاهر الحاسة الوطنية والحوالج الانسانية في بيان متين ومعان سامية وألفاظ تسيل ماء وتؤجّ ناراً .

أما قصائده في التاريخ فلا أرى شاعراً لحق غباره فيها وقصيدته في حوادث النيل أو سينيته الاندلسية أو قصيدة النيل أو غيرها تتحدّى الزمن بخلودها . أما الشعر الديني فقد كان لشوقي فيه تفحات طيبات وآيات رائعات وكثيراً ما ضمن شعره في مناسبات جميلة إيماناً قوياً بما أنزله الله من أديان وشرائع وكم تغنى بجمال السيد المسيح وتمجيد رسالته من حب وسلام وإخاء ، وأرى أنه بزّ الأباصري في قصيدته سهج البردة وله في ميلاد النبي (صلم) قصيدة رائعة المعاني تفيض بموسيقيتها ومعانيها جلالاً وجمالاً وزهادة وتصوفاً .

ويُعَدُّ شوقي الشاعر الموفق في هذا النوع من الشعر مما يدلنا على صفاء قلبه وقوى إيمانه . وأما شعره القصصي فلي فيه رأى وهو ان شوقي وإن كان من البادئين بوضع الحجر الأول في هذا النوع من الشعر في لغة العرب إلا انه اتجه ناحية واحدة فجعل ينضح من اناء التاريخ دون غيره فاخرج لنا كليوباترا وقيز وعلى بك الكبير ومجنون ليلي .

وأرى أن هذا النوع من القصص لا يفيد كثيراً في ترقية مستوى الشعر العربي ولا يكسب الأدب مادة قوية ولا يعد من نفائس التأليف ، وأرى أن الشعر القصصي المنشود ذلك الذي يستقى خياله من نبع الحياة ويستمدّ وحيه وإلهامه من حوادث عصره وأخلاق ناسه وصور حضاراته، غير أني لا أنمط شوقي فضل نبوغه في هذا المضمار ولا أنقص من عظيم جهده وكفى أنه في طليعة من وضعوا القصة العربية شعراً وفي مقدمة من أخرجوا الرواية من سفر التاريخ .

وأرى أن شوقي قد أدّى رسالة الشاعر الى عصره بقدر ما هبأه الله وأتاح له ذكاؤه وأدبه وعلمه وشاعريته . وإن قصر شوقي في بعض النواحي الشعرية كما أسلفنا القول عنه فجاءت دواوينه الثلاث خلواً من شعر الوجدان فهذا لا يفوت عليه حسناته فيما بقي لنا بعد ذلك من شعره . وحسبه أن يكون شاعر الاجتماع أو التاريخ فهذا رديرد كبلنج شاعر الامبراطورية البريطانية لا تجيد الانسانية في شعره ظلاً تنفيؤه أو نبعاً تبل من مائه صدى أحشائها، شعره لا أثر للوجدان ولا للعاطفة الانسانية فيه ومع هذا فهو شاعر الامبراطورية وحامل جائزة نوبل . فإنا اذن نستعدي على شوقي الأقلام وليس من شوقي كثير لدينا ؟

أجل ، كان شوقي مقلداً في بعض شعره ولكنه كان منتجاً وقد أردناه أن يبدل نهجه في الشعر ويبدأ من حيث بدأنا نحن ولكننا لم نذكر أننا ابتدأنا من حيث انتهى هو ! لقد أدّى شوقي رسالته إلى عصره غير مقصّر ونفض راحته من هذه الدنيا ، وأتم رحلته في الحياة ، فليؤدّ كلُّ شاعرٍ منكم رسالته وتكونوا مخلصين للأدب والفن فإن في أعناقكم أمانة القادة فوجهوا الجبل إلى الكمال وأنبتوا منه لمصر نباتاً صالحاً ناضج الجنى طيب الثمر ؟

على محمود طه
المهندس

شوقى وأنداده

إذا كان الشعر حسب تعريف ليخ هنت هو موسيقى وإفناع وخيال وصور فهل هذه الاوصاف جميعها فى شعر شوقى؟ وهل هو شاعر كامل؟ وما نصيب مطران من هذه النواحي؟ ثم ما نصيب حافظ أيضاً؟

أولاً ما هى الموسيقى فى الشعر؟ ان اول ما نصف به شعر شوقى انه موسيقى وأول ما نصف به شعر الزهاوى مثلاً أنه لا موسيقية فيه فما معنى هذا؟ ذكرت احدى الجرائد الفرنسية مقارنة بين شوقى وبول فاليرى شاعر فرنسا الاكبر فى العصر الحاضر، فذكرت هذه الموسيقية، وهى على حق. ان شوقى وفاليرى اتفقا فى هاته الصفة، ولا أعرف شاعراً سبقهما فى ذلك غير بودلير. هذه الموسيقية هى البراعة فى اختيار اللفظ، وانسجامه ليؤدى المعنى المطلوب. قرأت فى ماكبث لشكسبير سطرأ تقوله اللادى ماكبث ويدها ملوثة بالدم، فشعرت ان روحها تهبط وتعلو كعاصفة، شعرت من هذا السطر بنفس مجرمة تتنازعها الالهواء. وشعر حافظ موسيقية فقط، والثلاثة الباقية: الاقناع والخيال والصور غير موجودة، ومطران لا يعنى بالموسيقية كثيراً، ويعنى بالخيال والصور.

والموسيقية من حيث أنها تحتاج الى اللفظ والصياغة والانسجام، فهى اذاً فى حاجة الى الالمام العظيم باللغة، هذا الى ذوق خاص لا يمكن اكتسابه بسهولة والى اذن تحسن الاستماع وتمييز الانغام.

ولا بدع انه ليس من موسيقية فى اللفظ كموسيقية القرآن.

أما الاقناع، فهو قوة خاصة فى الشعر، بحيث يضطرك الشاعر الى متابعتة، والى السير وراء رأيه والايمان به، ويملك عليك مشاعرك، بدون أن يملكك، او يشعرك انه يقودك، وأنت تتبع ساحراً جباراً لا خلاص لك منه.

ولعل المثل الأعلى فى ذلك هو الشاعر راسين. أما شوقى فقد كان على جانب كبير من هاته القوة، وإذا اقتنع هو نفسه، وراح يدافع عن قضية هى جزء من حياته او حياة أمته، وراح يصف شيئاً له فى نفسه مكانة، فانه احياناً يبلغ الذروة، ويصعدك معه، الى حيث تقنع بما رأى وتؤمن بما حدثك عنه.

اما الخيال ، فهو الناحية التي قصر فيها شوقي ، وأبدع فيها مطران وانعدمت من شعر حافظ ، ومن الخيال ما يسمونه باللغة الانجليزية Fancy وفي هذا يوجد شاكسير ويمتاز أو لا يشق له غبار ، ولا أدري مقارباً له في الادب العربي الا في قصيدة شوقي حيث يخاطب توت عنخ آمون شاعره بنتاً وُور ويشكو له ضجة الموسيقى حول قبره :

مصر الفتاة لم توقر جدّها دقت وراء مضجعي جازبندّها
فهذه الروح السخرة التي يداعب بها توت عنخ « حفيدته » مصر ويشكو بها
ضجره لانها تضرب جازبندّها خلف قبره - هذه الروح التي تكسو الحبيب ،
او البطل الذي تتكلم عنه ، ثوباً من السخر الرقيق - هذه قليلة ، قلة متناعية في
الشعر العربي ، كثيرة في شكسير وكولردج ويرون . على ان الخيال واطلاق العنان
للتصورات العالية لا للاستعارات والكنايات اللفظية كثير في شعر مطران ، يذخر
به ويعلو الى آفاق هائلة . اما حافظ فلا خيال له وذلك لحرصه على الموسيقى فقط ،
ولعدم المامه بالادب العربي .

اما الصور الشعرية فقليلة كذلك في شعر شوقي : نغنى بذلك انك تقرأ قطعة
للشاعر فلا تملك الا ان ترى الشيء مرسوماً أمامك بوضوح جسماً قوياً بارزاً .
وشعر شوقي الاخير موفق في ذلك ، ظاهر في شعره المسرحي . أما شعره الأول
في المدح وفي الغزل الذي يبدأ به قصائده فهو بالطبع ألفاظ مرصوفة مصوغة
لا تؤدي صورة ولا ترسم شيئاً . والمشهور عن شكسير ان الفرق بينه وبين
غيره من الشعراء ومؤلفي الروايات المسرحية ان كل لفظة ترسم صورة ، فما بالك
بالسطر او بالقصيدة ، واننا في اذهانتنا نخزن ألفاظاً وهو يخزن ويبرز صوراً
واضحة قوية ، ويقول اكبر نقاد المسارح ان المؤلف المسرحي الذي يملأ روايته
بالالفاظ التي ترسم الصور بسرعة في ذهن الجمهور هو الذي يظفر باكبر قسط
من النجاح .

وهذه الميزة كانت على أتمها في شعر ابن الرومي : خذ مثلاً قصيدة حريق
بعداد ، وفي شعر البحترى احياناً : كقصيدة الايوان .

أما مطران في شعراء العربية فهو ممتاز في هذا : فله قصائد منفردة منقطعة النظير
في الصور ترسمها وتنقلها الى الاذهان . خذ مثلاً قصيدة فتاة الجبل الاسود ،
أو قصيدة الجنين الشهيد .

فانت ترى في الختام ان شوقى تميز بكثير من صفات الشاعر الكامل ، ولو مدد الله في أجله واستمر في المنهج الذى انتهجه أخيراً لبلغ مدى لا يُجارى . وبارك الله في مطران ، وفي أدبه المشرق العالى المطبوع بطابع الخلود

ابراهيم ناجى



جهولة فى أدب شوقى

قد تقسو الحياة على الأديب فتلفظه وتثد من نواحي عبقريته : ذلك بأن كل ذى نعمة محسود ، والناس أعداء ما جهلوا فلا يزال يتنقل فى سر من الحياة على غير مسمع من الناس يتبرم بالحياة ويزهّد فى الدنيا ويتهم الفضيلة ويتجنّب على الأدب . فاذا أراد نفسه على الوصف لم يجد منها غير مرآة صدئة ونفس لاغبة وخيال لا يترأى غير أشباح مبهمّة . فاذا انتقل إلى المدح لم يجد خلافاً حسناً بين القلوب المدخولة المشوّبة له على حقد فيأتى بالمتكلف المسترذل . والجانى عليه فى ذلك بيئته وجفاف الثرى بينه وبين قومه . على هذا النحو درج الالوف من الادباء وقضوا فأنبّه لهم ذكر ولا عظم لهم خطر .

وقد يولد الأديب فى بيئة رافهة ناعمة لا يتصل بذنابى الناس وأوشابهم فاذا تناول بؤس الحياة وشظفها نزل إلى لُجّة لا يهتدى إلى مناطها ولا يسبر غورها وعزت عليه الحقيقة ونضب أمامه الخيال . وهكذا تستطيع - لو حاولت - أن تتلمس للشاعر مهما سمت منزلته سقطات وهفوات بل نواحي مبتورة لا يمضى فيها المجيد فى غيرها حتى يكون ناظماً متشاعراً .

أما شاعرنا فقد مطيع على غرار خاص ونشأ نشأة متباينة المنازع فواتاه التوفيق من يوم مدرجه ، وأتاه التوفيق لأنه كان أديب الخاطبة بل سيمير الملوك والاقبال فنبت كما نبت ابن المعتز : بديع الوصف ، رائع التشبيه ، سامى الخيال ، شريف العبارة ، جيد الأسلوب ، متين السبك ، تحسّ حين يطالعك شعره أنك فى حضرة العظيم . يظهر لك ذلك بوضوح حين يذكر السيدة مريم طريدة قومها فيأتى إلا أن يجعلها خيال السامى فى صولة ودولة وحاشية لا تمجدها لغير الامراء والملوك إذ يقول :

« ضربت في طول الأرض وعرضها ، يوسف حادياها وجبريل هادياها ، والقدس نادياها ، والطهارة أرجاء وادياها » . وتراه في نجائه لأبي الهول يتصور فيه سمير الدهر ونديمه ومناجي العصور حيث يقول :

أبا الهول أنت نديم الزما نر نجى الأوان سمير العُصُر

ولو رجعت البصر في رأيته في الانقلاب العثماني وستقوط السلطان عبد الحميد رأيت من شوقي عظيما يستعرض أعمال عبد الحميد استعراض من يحاسبه على أعماله في عتب عليه كأنه ند له في جلاله وجبروته بعد أن قدم لعننه هذا وصفا ليلدز قلما يتفق لشاعر مثله .

شاعرية شوقي

ومن ينكر على العظيم عبقريته ويمجد فضله وقد نفخ في الشعر من روحه وأمدّه من وحيه فأيقظ الأدب العربي وخَلَع عليه خلعاً غربية موشاة بثقافة جامعة فكان الابن المتحضر البار الذي أَرْضَى القديم وأنصف الجديد فشعر شوقي صورة ناطقة عن عبقرية مخله . كثرة في إجادة وإبتكار للمعاني الحديثة مع إصابة للرأى في كثيرها . وهو في قوله مصور بارع يتابع الوصف متمهلاً مترقفاً في موضع الرفق ، ولا أدل على ذلك من شعره الغنائى الذى يكاد يسيل له صلد العواطف وتَنَمَّات له الجوانح مما سار وتناقله الناس وتغنوا به وهو رقيق في عتبة حزين كل الحزن في رثائه كأنما يواسيك بأفلاذ قلبه فترآه يناجى اسماعيل باشا صبرى نجاء تحس فيه بالوعة يضطرم نارها في قلبه يستحلفه فيها بعهوده القديمة وعوارفه إذ يقول .

قل لي بِسابقةِ الوداد : أَقاتلُ هُوَ حِينَ يَنْزِلُ بِالْفَتَى أَمْ شاف ؟

وتراه يأتى على ذكر العلة التى انتابته حين يقول :

لَجَّتْ عَلَى الصَّدْرِ الرَّحِيبِ وَبَرَّحَتْ بِالكَاطِمِ الْغَيْظِ الصَّفْوَحِ الْعَافِ
مَا كَانَ أَقْسَى قَلْبَهَا مِنْ عِلَّةٍ عَلَقَتْ بِكَرَمِ حَبَّةٍ وَشِغَافِ

ذلك ما تحس به في وجده على أديب رثيد له .

وتراه يشتد في موضع الشدة فيخرج لك صوراً حسية تكاد تلعبها باليد: صوراً لها قوة الأخذ ومتين التماسق والترتيب . ولا غرو فالعقل الراجح والطبع الملمهم والتمكن من القريض كل أولئك كانت عوامل مجتمعة على موافاته بالحكم الرائعة وبث الحمية واستنهاض الهمم في أسلوب راقٍ ممتع .

أذكره له إن شئت مثال التضحية وكيف أنها أساس الحرية وبها توطد العروش:
 تاجٌ ترى فيه إذا قلبته جهد الشريف وهمة الصعلوك
 خزانته دم أمّة مهضومة وجهود شعب مُجهدٍ منهوك
 وتراه يبدع في ضرب الامثال للجاهل الاحق إذ يقول:

يَاطِيرُ وَالْأَمْثَالُ تُضْرَبُ لِلَّيْبِ الْأَمْثَلِ
 دُنْيَاكَ مِنْ مَادَانِهَا أَلَّا تَكُونَ لِأَعْزَلِ

وما أحرصه على أن يكون باحثاً عن الحقيقة ولكن في مناط العقل ، فتراه في
 وصف نابليون يبالغ ولكن في احتراس إذ يقول :

كَدَتَ مِنْ قَتْلِ الْمَنَايَا خَبْرَةً تَعْلَمُ الْآجَالَ أَيَّامَ تَحِينُ
 وإذا كان لنفس الشاعر خطرات ووجوح تندّ عن الحقيقة وتعجب بالخيال لأنه
 الخيال فقد كان الرجل كأنما أعجب بقول القائل :

وَأَخَفَتِ أَهْلَ الشَّرِكِ حَتَّى أَنَّهُ لَتَخَافُكَ النُّطْفَةُ الَّتِي لَمْ تُخْلَقِ !
 فكان عند هذا الخيال الشارد مجاريه بقوله :

تُعَلِّمُ حِكْمَتُهُ الْحَاضِرِينَ وَتُسَمِّحُ فِي الْغَابِرِينَ النُّطْفَةُ !

شوق الأول

وما كان الفقيه ليجمع نعمة تقلب في اكفافها وجر مطارفها في قصر مولاه .
 وما كان ليرضى بولائه له كسائر رعيته فحسب دون أن يصوغ له بُرْدَ النِّسَاءِ في كل
 مناسبة ، بل رأى أن يقف شاعريته التي كفلها مولاه وأحاطها بمجده ورعايته على
 البيت الكريم وآله .

وما كان لشاعر مهما ممت بيئته وزكت أرومته أن يتخذ لونا واحداً في معظم
 شعره يستطيع فيه أن يرازم ويبين في عباراته ويمجد في أساليبه حتى يأخذه الآن
 ويمعيا بما أخذ . أما شوقي فقد خضع لهذه النظرية على الجملة في دوره الأول
 ولكنك تحسّ بروح عالية وعبقريّة وفيّة تطالعك في شذرات تقدّر فيها ملكة
 الشاعر وتوسم لهذا الشعر اليافع حياةً أحفل وأروع . ذلك اللون من النماء والمدح

والوصف الراقى الذى قدّمت لك قد انتظم الجزء الأول من ديوانه فى جل منظوماته
إذ كان يتلمس لها السبيل ويستطرد إليها فى كل مناسبة .

شوقى الثانى

حتى اذا تطور الزمن وعصفت بالبلاد هوجُ الحوادث لفتت فيما لفتت هذا
الشاعر وكان ذلك بداية فتح جديد لشوقى الجديد .

على أن ذلك الشيخ الشاب انما كانت تسعده الحوادث وبعده حدثان الدهر فى
أخريات أيامه . وتلك فرص إن كانت لم تواته فى مستقبل حياته فانها أمّلت له حتى
يستجمع قواه ليخرج لنا درر المنظومات ومنظومات الدرر موسومة بطابع جديد
يتلاءم مع نهضة فكرية علمية ، فسا كان لشوقى الموالى للبيت الكريم وآله أن يظل
قابلاً فى مجنمه والزمن يمر من حوله سراعاً دون أن ينزل منه فى المعقد والأزار .
بل آثر أن يمرح فى جناب الأدب الخصب ، فتفتن ما شاءت له روحه الفياضة وما
عنّت له شاعريته حيث كانت تدفعه بعنف إلى مطابقة الحياة فى ألوانها ، وإلى موافاة
كل حدث جلّ أو صغر بخلجات نفسه ووحى وجدانه وشعوره الحى نحو نهضة العالم
عامة وأمتة خاصة ، فترى له طاقات ومجاميع من نقشات قلبه فى المؤتمر الشرقى الدولى ،
فى مشروع القرش ، فى تحليل ذكرى الدرويش ، فى نجاه توت عنخ آمون ، فى خلع
السلطان عبد الحميد ، فى الدستور الجديد ، فى مؤتمر الائتلاف ، فى كل لون من
ألوان الحياة التى لا يستوعبها الحصر .

وما كان للشاعر المفرد أن يكثر كل هذا الاكثار فتكثر عليه المآخذ وتتخلف
بالرغم عنه سواقط فى مجلته هذه ويكون من التاريخ موضع البحث والتحقيق لولا
أن الفقيه لم يشأ أن يخدع العالم فى شاعريته وأن يحتجج دون الناس ما هم
فى مسيس الحاجة اليه بخاض غمار الأدب مدججاً بالعزيمة مليئاً بالثقة من نفسه
يحاول أن ينهض بالأدب وحده ويؤثر أن يتحمل أعباء طوره فكان عصرأ حافلاً
بالأدب وحده .

نثره أخيراً

على أن ربّ القريض أنف أن يكون صاحب راية القريض بينما تحفّق الراجية
الأخرى فى العُدوة الثانية لغيره . كبر عليه ذلك فرأى أن يلجّ بابَه ولوجاً مصلياً

وارتاح إلى زرائه وذبوع شعره وإشادة الدنيا بذكره فاستمدَّ المعونة من قريبه لمشوره وآتى بشدرات صاغها اسماطاً وقلائد، وهى وإن كانت فى جهرتها قوية حفيّة بالاكبار إلا أنه كان يركب أحياناً متن الاعتساف فترى الماء الصافى السلسال الذى تذوقه فى شعره يكاد يغيبض، وترى تقاراً بين مسجوعه فى قوله فى الموت :

« وإذا الملك والسوقة سواء . حقبة المنية كل يوم فى ركاب ، من مناكب ورقاب ، تحمل الشيب والشباب الى رحي البلى فى اليباب ، فيدور عليهم الدولاب ، فاذا هم حصى وتراب »

حفله بالحوادث التاريخية

أما اضطلاع الرجل بالتاريخ والمamente بالعلوم فكانت جل عنايته فى شعره ونثره فتراه يطالعك فى مستهل قصيدة بقوله :

الله أكبرُ كم للفتح من عجبِ يا خالداً التُرك جددُ خالداً العربِ
وتراه ينتقل فى موضع آخر يذكر بحديث يوشع وشمسه بقوله :

قنى يا أخت يوشع خبرينا أحاديث القرون الغابرينا

ثم هو فى موقف آخر يبيح للعالم الضليع البحث والتحميم ، يشبهه فى ذلك بأهل بدر حيث يقول : « والعلم بدرى أحلّ لأهله ما يصنعون » .

ولم ينس أن يعترف من التاريخ الحديث ما يضمنه شعره المحدث حيث يقول فى رثاء نابليون :

حول استرليز كان الملتقى واصطدام النسر بالمستنصرين

ذلك ما نعدّه مغلداً للتاريخ وما نعدّه التاريخ مغلداً له من ناحية أخرى .

إلا أنه قد يُحسُّ الشاعر بثورة فى نفسه ووخز ضميره تناله منها اللوعة والحسرة فتفيض نفسه بالحوادث يستروح بها فى كلامه ويخفف من لواعجه فتراه يسرف فى ذكر سلسلة منها للشئ الذى يتناوله حتى ليدخلك الشك أنه موكل بذكر فذلكة تاريخية لهذا الشئ ، وما ذلك إلا نفثة المصدر وزفرة الملىء . فتراه يسرد لك فى وصف قناة السويس بعد مطلع بديع شيئاً عن اسماعيل والتقاء الأحمر بالأبيض وموسى الكليم ويوسف وروح الله والعذراء والاسكندر وعمرو بن العاص ونابليون . وتراه فى موطن آخر يسوق هذا الحشد حين يأتى على مناجاة الأهرام يقول : « فى هذا الحرم

درج عيسى صبيًا ، ومن هذا الهرم خرج موسى نبيا ، وفي هذه الهالة طلع يوسف كالقمر وضيا ... »

مسير حياته

عرف الناس في شوقي الشاعر النابه المجدد فذهبوا يلهجون بذكره ويكبرون شعره ونثره حتى ذهب بهم الغلو الى حد تقديسه وتمجيدها وكلما طالعهم بقول عدوه نسيج وحده وبهرتهم جدته فأنستهم قديما قيل وراعتهم صبوة الانتصار لشوقي فرانت على قول غيره من الشعراء السابقين . وما كان ذلك إلا حافظاً للرجل يهيب به إلى الدأب والالاجدة ليحقق للتاريخ ما أشاد به قومه ، فأخرج الخريب من الروايات المسرحية مما عُدَّ مفخرة العصر الحديث ورأى أن قد سبقه الى فكرته سيد القريض الشاعر الضليل وفي على نسجه شاعر الحب والغزل ابن ابى ربيعة وترسم من آتى بعدهما طريقتهما رأى ذلك ثروة حازت الاعجاب فجعلت لهم ناحية مفردة في التاريخ فعمل على ان يضيف الى هذا التراث ثروة خصبة حضرية عصرية فاستعدى على المجنون شاعريته وخياله تترصّاه في ان يخرج من شعره الخالد قصصاً تمثيلاً مفرداً في بابهِ فكان قريضاً أرضى المجنون برصانته وجدته وكثرة مائه ، وما عثم أن تابع ذلك برواية قبيز التي قامت لها قيامة النقاد . فلم توهن من عزيمته فأخرج رواية عنترة وأميرة الاندلس وما كان حين أخرج مصرع كليوباتره أو على بك الكبير إلا مخرجاً للقصة الدرامية في مغزى رائع التأثير أخاذ بالنفوس .

تفاعله الأدبي

قلما ينبه العظيم فيُسعدُ الأمة بنباغته وَيَسعدُ هو على حساب ثروته إلا أن يكون فوق اجادته لما أخذ به نازلاً من أهل الأدب عند ما يرضى الناس والأدب ، وذاهباً مع الساسة والمفكرين بما يرتاح له الفكر وتصبوا اليه النفس اذا فنيت في حب الوطن . وما كان أخلق شوقي ان يكون ذلك الانسان فقد سعد لا بالثراء يحوز منه الكثير لأنه ما طمحت نفسه إلى ثراء المال وحده بل ليكون رب الدولتين ، وكأني بروحه الجياشة بالأمال وبهمامة نفسه التي ما فتئت تلج به ان يكون فوق ما يمكن ان يكون تدفعه دفعا الى العناية التي لا يقدر مناطها غيره فما وجدناه متطامناً مرتاحاً لما وصل اليه من إمارته لدولة الأدب في جميع ألوانه ، وما قنع الناس منه على ثرائه وجدته بما أخرج لانهم رأوا فيه معينا لا يَنْصُبُ فسعدوا وسعد ، وما أدوم سعادتهم وما أخلد سعادته ما

احمد شوقي

ذكريات (١)

لقد يكون من مفارح حياتي الصحفية أني لقيت احمد شوقي بك في سنة ١٨٩٩ على صفحات « الاهرام » وأنا حديث العهد بتحريرها بأمر الشعراء ووصفت قصائده « بالشوقيات » ، وكانت « الاهرام » يومئذ الميدان الوحيد لخياله الراقى . وكان المرحوم صاحبها إشارة تقلا باشا الذي رثاه احمد شوقي بالبيت المشهور الذي ذهب أحد شطريه مذهب المثل : « رجل مات والرجال قليل » من أكبر المعجيين بشوقي وبشعره وبذكائه وخصافته .

ولا أدعي جواز اطلاق هذا اللقب على شوقي أكبر شاعر في عصرنا على ما اعتقد وقد يكون أكبر الشعراء في العصور الخوالي أيضاً لأنه جمع بين الحضارتين القديمة والحديثة والأسلوين العتيق والجديد ووفق بين الطارف والتلبد . ولكن متابعة الكتاب والادباء للاهرام في ذلك حتى اليوم أعطت للقب مكانته وأحلتها الخجل الذي أريد منه وأريد له وكذلك وصف قصائده ، ولما ظهر حافظ ابراهيم بشعره الرائع أطلقت عليه « الاهرام » لقب « شاعر النيل » فأقر الكتاب والصحف ذلك اللقب . ولا أدري من الذي لقب خليل مطران بعد ذلك بشاعر القطرين وامام الصنائين ولكن أدباء تلك الأيام وشعراءها كانوا يضعون احمد محرم في هذا الصف صف الثلاثة ، وكان المرحوم اسماعيل باشا صبرى الذي كانوا يلقبونه بحق وصواب باستاذ الشعراء يتغنى بشعر هؤلاء الأربعة ويطيب له التحدث عنهم ، وإذا نظم أحدهم معنى مبكراً يهتز له طرباً وحمرة مدحاً وترديداً . وكان يقول إن شيطان الشعر يحلق بشوقي حتى يغيب عن مداركنا وخیالنا . أما السبب الذي دعا الى تلقيب احمد شوقي بأمر الشعراء فهو أن الخديوى عباساً كان يهمل شوقي بعض الاهمال لاعتقاده ، بل لأنهم أدخلوا على نفسه ، أن احمد شوقي « شاعر » فقط . وأنه هو بحاجة الى رجل سياسى لما كان بينه والانكليز من الكفاح والجلاد فاجتمع لازالة هذا التوم من صدره المرحومون بطرمن باشا خالى (وقد كانت به نزعة للأدب والادباء) وبشارة باشا تقلا ومصطفى باشا

(١) آمل من القراء اغتفار كلمة الانانية لان مجلة (ابولو) تطلب منى ملحمة ذكريات شخصية محبة .

كامل. وكان بطرس باشا يطلب من الخديوى أن يسمح له بتوظيفه شوقى فى الخارجية بضعفى مرتبه الذى كان يتناوله من قلم الترجمة فى السراى، وكان بشارة تقلا باشا يعرض على سموه مثل هذا العرض ليوليه تحرير «الاهرام» فتأييداً لذلك وضع شوقى فى مكانه من الأدب وامارة الشعر الى أن قربه الخديوى وناط به كثيراً من المهام فقام بها خير قيام. فأولاه ثقته وقدمه على جميع رجاله وطرده من خدمته حسين زكى وزامر الذى قال صاحب «مصباح الشرق» يومئذ فى وصف خروجه من السراى: «إن خروج زامر من المعية ألد من خروج البرغوث من الاذن». وبعد أن كان الكتاب يلقبون شوقى بأمرير الشعراء أعطاه الخديوى بعد انعاماته الكثيرة التى غمر بها لقب «شاعر الأمير».

كان احمد شوقى بك يسكن داره فى حى الحنفى والشيخ زكى سند مؤسس «جماعة مكارم الاخلاق» يسكن فى حارة السقاين وكنت أسكن فى ذلك الحى. فكاننا متجاورين وكنا فى كل صباح نلتقى فى الطريق فيذهب شوقى الى سراى حابدين والشيخ زكى الى مدرسة اليسوعيين للتدريس وأذهب أنا الى ادارة جريدة «المحروسة». فكان الكثيرون من الأزهريين الذين لا يصدقون ان خريجاً من خريجي مدارس فرنسا كاحمد شوقى يستطيع قرض ذلك الشعر الراقى كقصيدته فى الخديوى توفيق:

لك مصر يجرى تحت عرشك نيلها ولك البلاد عريضها وطولها
وكقصيدته فى مؤتمر جنيف:

همت الفلك واحتواها الماء وحداها بمن تقلل الرجاء

وكلتا القصيدتين كان الطلبة يحفظونها. فكانوا يقولون أن الشيخ زكى سند صديقه هو الذى يساعده فى نظم هذه القصائد لما يروونه بين الاثنين من الصداقة ولا اجتماعهما كثيراً لأنهما من حى واحد.

كان شوقى لا يتعرض للسياسة فى شعره، فلما قربه الخديوى ووكل اليه الكثير من الشؤون السياسة تحولت قصائده من الخيال البحث والحكم والوصف الخ. الى السياسة التى كان يتأثر بها كمدحه السلطان عبدالحيد لأنه شاعر أمير مصر ولحمته على رياض باشا فى حادثة الحدود وقد زار الخديوى الجيش وانتقد نظام إحدى الأورط فعند اللورد كرومر ذلك اهانة لكتشنر باشا مقلب من أجلها الترضية، وكان رياض باشا رئيس الوزارة فتبرأ من عمل الخديوى وذهب الى الفيوم حيث قابل سموه واستصدر منه

تلغرافاً الى كتشنر باشا يثنى فيه عليه وعلى نظام الجيش وكحملته على هذا الوزير عند افتتاح مدرسة محمد على الصناعية لأنه ألقى خطاباً قال فيه للورد كرومر أنه يعتمد عليه في انجاح الجمعية والمدرسة . وقبل أن يطلع صباح اليوم التالى طلع شوقى على الجمهور بقصيدته التى يقول فيها :

كبير السابقين من الكرام برغمى أن أنالك بالسلام
مقامك فوق مازعموا ولكن رأيت الحق فوقك فى المقام
خطبت فكنت خطباً لاخطيباً أضيف الى مصائبنا العظام ا

وكقصيدته فى اللورد كرومر يوم وداعه وكانوا قد عقدوا له اجتماعاً فى الاوربا ليتمكن من الخطابة . وحضر الاجتماع الامير حسين كامل فألقى اللورد كرومر خطابه الشديد للهجة فذم عصر اسماعيل على مسمع من ابنه وحمل على المصريين لأنهم لم يقدرُوا عمله فى تحريره أصحاب الجلايلب الزرق ، فنظم شوقى قصيدته المشهورة التى يقول فى مطلعها :

أيامكم أم عهد اسماعيل أم أنت فرعون يسوس النيل ؟

فقابلها رأى العام بالارتياح العظيم لان اللورد كرومر آلم المصريين فى كرامتهم حتى أن السيد حسن موسى العقاد الذى كان يقف فى وجه الخديوى مستنداً الى ذراع اللورد كرومر أرسل اليه تلغرافاً وهو يركب الباخرة من بورسعيد ضمه أشد اللوم للورد على كلامه القارس .

ولما عاد احمد عرابى من منفاه هزت روح عودته وهو على ما كان عليه من الكبرياء شاعر السراى شوقى فقابلها بقصيدته :

صغارته فى الذهاب وفى الاياب ا هذا كل شأنك يا عرابى ؟

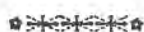
على أن تحول شوقى الى السياسة وتحول شعره اليها لم يحوله ولم يحول شعره عن بعض الصداقات العالقة بشغاف قلبه كصداقة المرحوم مصطفى كامل فانه رحمه الله قطع صلته بالسراى الخديوية بعد اتباع الخديوى سياسة الوفاق مع السيرالدن غورست ووجه مصطفى كامل يومئذ كتاباً مفتوحاً على صفحات الصحف الى الخديوى وكان هذا الكتاب شديد الهجة، ولكن ذلك لم يقطع ما بين شوقى ومصطفى كامل حتى أن شوقى كان المواسى الوحيد لمصطفى فى ابان مرض الموت وقصيدته فى رثائه من أدروع الشعر . نظمها شوقى فى الليل ونشرت فى الصباح وذهب مذهب المثل قوله فيها :

دقات قلب المرء قائلة له إن الحياة دقائق وثوان

كانت الحادثة من الحوادث تقع صباحاً فلا يحل المساء حتى تذاع بين الجمهور
وبقصيدة شوقي لأنه كان للحوادث تأثير شديد عليه يهز أعصابه ويستثير نفسه
ويحفز خياله . وكان أكثر ما ينظم الشعر وهو ماش أو واقف أو جالس إلى أصحابه
يغيب عنهم بذنه وفكره . فقلما يجلس إلى مكتبه للتفكير وعصر الذهن ، فإذا جلس
إلى المكتب فلتدوين ما يكون قد نظمه واستوعبه في ذاكرته . فبين سيكارة
وأخرى يجد فكرته وبين كلمة وأخرى يجد الطرف الموافق لهيكل الفكرة وكان شديد
الحذر ينتقى ألفاظه كما ينتقى معانيه ، لأنه كان شاعراً سياسياً في كل أشعاره وفي كل
أطواره الشعرية .

ولو أن قصائد شوقي ومنظوماته جمعت بالتتابع مع مراعاة زمن نظمها والظروف
التي دعت الشاعر إلى النظم وبيان ما فيها من إشارة وتلويح وتلميح لكان من ذلك
في نظري وعقيدتي أجل ديوان ولكان هذا الديوان أصدق تاريخ لحوادث مصر منذ
عهد الخديوي توفيق إلى اليوم . وأما جمع ديوانه على الطريقة التي جمع فيها بعض
شعره في العهد الأخير فعمل لا ينبغي شعر شوقي مقلمه من الشعر والتاريخ معاً .
ولربما كان الأمر سهلاً بعض السهولة اليوم ، ولكنه يصير مستحيلاً بعد بضع
سنين إلا إذا كان شوقي قد دون ذلك بيده كما كان يعدم ؟

داود برحات



صورة من شوقي

لست متعنتاً ولا مسرفاً إذا قلت : ان شوقي آخر حسنة في الشعر العربي جادت
بها الطبيعة ، وسلبنا الموت إياها . ولم أرم بذلك القول باطلاً وذلك لأن الدنيا أصبحت
عقياً في الرجال ، بل استطيع أن أقول إنها تستطيع أن تلد للنبوغ أعظم من
أكثر ولندنبرج وغيرها من أفذاذ المادة ، ولكن هيهات أن تطلع أفذاذاً
من أبطال الروح والخيال السامي كشوقي ، لأن الفن الخالص من المادة قد تقلص
من هذه الدنيا وطني عليه الفن المادي ، وإن رجال الجمال من هذا الفن إذا اخترم
الموت منهم واحداً فلن تعوضنا الدنيا عن مثله ، وناهيك بشوقي الذي كان في
الطليعة من هؤلاء الرجال .

ولستُ مسرفاً اذا قلت ان قصيدة شوقي في النيل أروع قصيدة عرفها الشعر العربي من لدن امرئ القيس بن حجر الى عصرنا هذا .

لست متعنتاً اذا حدثتك أن شوقي بزّ المتقدمين من أمثال أبي تمام والبحرّى وأبي العلاء في عيون قصائدهم .

فقد جرى الاول في بآيته ففاته ، والثاني في سيليته فسبّه ، والثالث في فائيته خلفه وراءه . وانك لجّد مشدوه اذا علمت ان هذا الرجل الذي تحسّ وأنت تحادثه أنه نصف أوروبّي يأتي بهذا الشعر الذي يعجز عنه هؤلاء الفحول في عربيتهم .

عرفتُ أمير الشعراء بشعره وكنت في الخامسة عشرة ، وكنت وقت ذاك في اقليم من الصعيد أجلس في أوقات الاصيل مع صديق من سنى قبالة دارنا ، وكنت أحسّ بالشعر كما يحسّ طفل في سنى ، وكنت أقرأ أنا وصديقي في الشوقيات فيفوتني أكثرها واتقهم أقلها ، ولكنى كنت معجباً بشوقي كما يعجب الطفل بأبيه وكنت أروى منها أبياتاً لأتربى بجرّحة في عربيتها وروياها . ولا زال إعجابى بالرجل يكبر معى حتى طرحتنى الطوارح ولزتنى السنون ، ولا زلت أذكر يومى السعيد يوم تقدمت الى أمير الشعراء للتعرف به ، وكان ذاك عقب قفوله من منفاه في سنة ١٩٢٠ . كنت في دار للخيلة رفقة أستاذ كريم ، من رجال الجامعة القديمة ، وكان الظلام قد بدأ يغشانا ، وقد أخذ دوىّ الأكلة في أزيه منذراً بابتداء عرض الصور ، فاذا بصاحبي ينهني الى رجل قصير ضامر ممسك بعروة سترته ، يسير رافع الرأس ، وخلفه ثلاثة يميلون الى الطفولة أكثر من ميلهم الى الشباب ، ويقول : شوقي ! فتشوقت في كثير من الفضول وأدمنت النظر حتى حلّ الرجل في كرسيه يتبعه هؤلاء الثلاثة ، ثم عم الظلام مطبقاً وعرضت الصور ولكنى لم أتبين منها شيئاً فقد ظلت نفسى منصرفة الى هذا الداخل ، وأخذتُ أعمل الرأى ، كيف استطيع التعرف الى هذه الشخصية الفذة ؟ فقر رأيي على التقدم اليه في نهزة الراحة بين عرض الصور ، وأخذنى زمعٌ شديد ، حتى أنى لم أكاشف صاحبي ببغيتى ، فما تكشف الظلام حتى بادرتُ اليه تاركاً صاحبي مدهوشاً ، وكشفت له عن نفسى ، وأعلنت أنى ممن ينظم الشعر ، وأود ان يسمع منى بعض ما قلت ، فتبسم رحمه الله ونظر الى كبير هؤلاء الثلاثة وقال : ياغلى ! ما مواعيد الغد ؟ فأجابه من ورقة صغيرة عنها . فالتفت الىّ وقال يسرنى ان تزورنى غداً في الرابعة بعد الظهر في المطرية . فسلمتُ شاكرّاً وعدت ، وحدثت صاحبي بما حدث فهنأنى .

أشرق على الغد ، وكان يوماً صائفاً ، وقد بصر الحر في شهر مايو وحل الموعد فأدركني حيرة : هل أتخلف لمكان هذا القيظ لاني رأيت انه لا يليق ازواج شاعرنا العظيم في قيلولته ، أم أبادر يحثني هذا الشوق الذي ينتابني للمكث لحظة مع أمير شعرائنا ؟ فاعتزمت قطار الضواحي وعرجت على كرمة ابن هاني ، وأرسلت مع الخادم بطاقتي فدعاني رحمه الله الى الطابق الثاني ، فاذا أنا بهذا الشاعر الذي قد آتى بالمعجز يكاد لا يبين في كرميه اللين وقد انتضى عنه سترته . فرحب بي برقة أنستني الفارق العظيم الذي بيني وبينه ، فاسمعت من نظمي قصائد استحسناها رحمه الله رقة منه وعطفاً . ثم تحدثنا في شؤون أخرى ، ولن اكذب الله فقد أدركني شيء من خيبة الامل فقد كنت أحسب ان شوقي لا ينطق الا شعراً ، ولا يتحدث الا شعراً ، ولا يسير الا بالشعر فاذا به غير ذلك ، مثلي ومثلك ! او كان يتنكب الشعر في كلامه ولا يشير اليه في حديث . وكنت احفظ من قصائده الكثير ، فكنت أسأله في بعض معاني هذه القصائد فكان يجيبني إجابة رجل لم يقل هذه القصائد ، ولم ينظمها ! فخرتني عند ذلك كلمة لفولتير ، قالها عن نفسه : وهي أنه عند ما كان يكتب يخيل اليه ان آخر كان يتولى ذلك عنه ، وكان يتهم نفسه عند قراءة كلامه !

ثم اتصلت بعد ذلك بشوقي اتصال ولىّ او قريب ، كنت ألقاه كل ليلة فأحسّ بروحه الشعرية تظلل المكان .

كنت اعرج على مكتبه بين الخامسة والسادسة مساءً ، حيث كنت ألقى ولديه وهما صديقان حبيبان لي ، وكنا لا نفترق ، وكانت هذه احدي حسناته الى رحمه الله ، فكنا نجلس يؤلفنا الشباب بمرحه ، وكنا نتنادر طوراً ونجدّ طوراً آخر حتى اذا اظلمتنا السابعة طرق آذاننا صوت حذاء يحثك بالارض فنحذر جميعاً أنه هو ، فلم نلبث طويلاً حتى يطل علينا ببسمة حلوة ، ما ذكرتها اليوم الا وجدت على قلبي منها غمراً ، ثم يفيض معنا في شؤوننا حتى تحسبه كأحدنا ، ثم ينقطع كل هذا فجأة ، ويرجع الى نفسه فيصبح كأنه ليس معنا ، فهناك تسمع غمغمة كأنها آتية من غور بعيد ، كما يقول أستاذنا مطران ، ثم لا يزال بين ذلك يمسح على جبينه بيده ، ونحن عند ذلك سكوت ، فاذا بلغ آخر مناجاة نفسه ، هبّ واقفاً وتركنا من غير ان يسلم أو يتتسم .

وكان رحمه الله لا يذكر ما نظمته من قصيد رائع في زمنه الخالي . حدث أني كنت أماشيهِ يوماً وكنت قد قرأت في صبيحته قصيدة في «عكاظ» نسبها صاحبها اليه وكانت القصيدة لمطران ، وهي في بعلبك ، فحدثته في ذلك وتلوت عليه مستهلها فقال : لا أعلم ربما تكون لي ، لأنني قد نظمت كثيراً . فقلت إنها لمطران وقد التبس على صاحبه «عكاظ» ، فأجاني مبتسماً : لقد ضاعت على مطران المسكين ! ولم نلبث في مسيرنا طويلاً حتى طلع علينا صاحب «عكاظ» مسلماً ، فاجه رحمه الله في هذه القصيدة ، فأصر صاحب «عكاظ» أنها له ، وأن رقتها وسلامة لفظها أخلق به ، فأصررت أنا أنها لمطران ، وقد قرأتها في ديوانه ، فاستطال على صاحب «عكاظ» عفا الله عنه ، وألح في تأييد رأيه ، فقال له : يا شيخ فهم ، ارجع الى مصادر هذه القصيدة وتبينها فاني لا أحب أن أغضب أحداً حقّه ؟ وانصرفنا ، فاذا بكتاب من صاحب «عكاظ» يعتذر فيه اليّ من الغد وقد أصلح ما تورط فيه من خطأ في العدد التالي لظهور هذه القصيدة .

ولو شئت ان أعدد من حسنات شوقي الكثيرة لملاّت كتباً فقد كان رحمه الله فريداً في كل شيء ، في خلقه وفي مروءته وفي برّه ، وإن نظفر بمنه بعده .
عليب الله نراه ورحمه رحمة تعادل ما أحسن به الى اللغة والأدب والخيال ؟
اصمحر محفوظ



شوقي امام التاريخ شخصيته وحكمته المطبوعة

تمهيد

اتفق الى أن كتبتُ فصولاً مطولة عن شعر شوقي في سنة ١٩٢٥ وهي فصول منزّهة عن الغرض يمجدها القارىء في كتاب « الموازنة بين الشعراء » وكانت فرصة طيبة عرفت فيها أخلاق النقاد المعاصرين . ويعزّز عليّ أن أصرح بأن جمهرة النقاد كانت من أصحاب الصحف الأسبوعية ، وكان شوقي عودهم التطلع الى مائدته الفاخرة وجيبه الثقيل ! وكانوا كلما احتاجوا الى « بره ومعروفه » طافوا حول شعره يتلمسون ما فيه من قوائم وعيوب ، وكان الرجل يغادر على شعره غير الكريم على عرضه ،

فكان يخرس أسننتهم ، ويقصف أفلامهم ، بالهدايا والهبات . وقد ظن أولئك أولئك المساكين أنى أكتب عن شعر شوقي لنفس الغرض الذى يسوقهم ويحفزهم الى الكتابة عن شعره ، فكانوا يتقدمون الى ناصحين ، وكان نصيحتهم يتلخص على اختلاف ألوانه فى هذه الكلمة الطريفة : « ان شوقى لا يحترم من ينصفه ! »

والاحترام الذى يفهمونه هو السخاء والكرم والجود ، وهذا النوع من الاحترام يبدو لعينى بغيضاً ممقوتاً لا يتطلع اليه إلا سفلة الناس . وليت شعرى كيف يحتاج الرجل الى هبات الاغنياء ورغيف واحد يكفيه يوماً وليلة ، وليس بطن الانسان إلا وعاء حقيراً لا يستحق أن تذلل فى سبيل ملئه النفوس ! ولكن هذا هو الذى وقع لنقاد ذلك العصر مع الأسف الموجه ، وقد استطاع أولئك المرتزقون أن يشوهوا النقد الأدبى أبشع تشويه ، وأن يقلبوا الحقائق الادبية قلباً كريبها ، وأن يروضوا الجمهور على الاعتقاد بأن الرجل لا يقول كلمة الحق إلا مأخوذاً بغرض دفين .

وقد عرفتُ بالتجربة أن شوقى كان كما وصفه أولئك الواصفون لا يحترم من ينصفه ، وتجلت لى حقيقة ذلك فى سنة ١٩٣٨ يوم قدم طاغور مصر وأقام له فى داره حفلة استقبال . كنت يومئذ مدرساً بالجامعة المصرية وكنت صديقه وكان الدكتور طه حسين من خصومه الألداء ، فدعا الدكتور طه لاستقبال طاغور فى منزله ولم يدعنى ، لأن الدكتور طه كان موظفاً فى الدرجة الثانية وكنت موظفاً فى الدرجة السادسة ، وفرق ما بين هاتين الدرجتين كان من الأمور التى يفهمها جيداً أمير الشعراء الذى عودته الحياة الرسمية أن يحترم الرسميات ! ثم وقع يومئذ ما هو أبشع من ذلك : فقد كان دما المسيو ساروليا ثم علم أن الجمهور هاج على ذلك الاستاذ لكلمة نددت فى محاضراته بالجامعة المصرية ، فكتب اليه شوقى ينبئه بأنه « سحب الدعوة » وأنه يرجوه ان يريح نفسه من الحضور لدار الكرم والجود « كرامة ابن هانى » على أيامها وأيامه تحية وسلام !

وكانت هذه أيضاً فرصة طيبة عرفت فيها أخلاقى : فان تلك الهفوة لم تنقص تقديرى لشوقى ، شوقى الشاعر . أما شوقى الصديق فقد ثرت عليه ثورة عنيفة ، وعدتُ لا أقابله حين ألقاه مصادفة إلا بنفس الزاهد العيوف . وقد اتفق أن تلاقينا عفواً فى الكونفنتال فى ربيع سنة ١٩٣٩ وكنت مع الدكتور منصور فهمى ، فسألنى شوقى عن انصرافى عنه ، فأجبت بكلمات فيها جفاء ، فالتفت الى الدكتور منصور وقال : إن شوقى بك والد الجميع ، وأنشد :

نميل على جوانبه كأنا نميل إذا نميل على أبنينا
نقلبه لنخبر حالته فنحبر منها كرمًا ولينا

ثم توالى الأيام ، وكانت تزيد في يقيننا بأن شوقى الشاعر شخصية منفصلة تمام الانفصال عن شوقى الذى يعرفه الناس كأنسان اجتماعى يخطئ ويصيب بين الحق والواجب ، وكان أن رأيت لآخر مرة فى مسرح حديقة الازبكية يوم اجتماعنا لمعاونة الأديب محمود أبو الوفا ، وأسرعتُ إليه أحبيه ، وأقبل أبو الوفا يسلم عليه . وكدت أصرخ فى وجهه : قبّل يد الشاعر أيها الجاحِد فقد شَرَّفَ قدرك بشعره ! وكانت عاطفة طبيعية : فقد كان شوقى فى ذلك اليوم وهو محطّم مهدودٌ يبدو لعينى فى وقار الصديقين . ولما علمتُ أنه سيقم حفلة شاي فى داره لأعضاء (جمعية أبولو) خطر ببالي أن أسعى لحضور تلك الحفلة ، خشية أن تكون آخر مرة يرى الناس فيها أمير الشعراء ، ولكنى رفضت أن أذهب بدون دعوة ، ثم كان ما مرّ بالبال صحيحاً ، وكانت آخر مرة يستقبل فيها شوقى رجال الأدب فى داره ، فياحسرتنا على ما ضيّعتُ من تلك اللحظات الطيبات !

لم أسئ يوماً الى شوقى الشاعر ، والحمد لله ، وإن كنتُ بعت حظى من شوقى الصديق ، وقد عانيت فى سبيل إعجابى بشعره نكبات عديدة ، فإن ناساً كانوا يودون لو هدموه ، ومن أولئك الناس رجال احترامهم وأرى فيهم مخايل العبقرية ، ولكنهم أولعوا بالنيل من ذلك الرجل ، وسلّكوا الى هدمه شتى الشعب ، وكان الرجل عظيم الشاعرية حقاً وكان أصلب من أن تنال منه معاولُ الهادمين ، فعادوا يتمسحون بأعتاب الخلق والوطنية ، وكانت لهم فى ذلك جولات رسم خطواتها الشيطان . والأخلاق والوطنية عكاز يتوكأ عليه كل مغرض حقود ، وستظل الاخلاق والوطنية دعامة يستند اليها ضعفاء النفوس والعقول ما دام أهل الشرق يحسنون الاستماع الى أدعياء الوطنية والاخلاق !

الخلق لله ، والوطنية لله ، كما أن الدين لله ، فلنترك لشوقى أخلاقه ووطنيته ، ولننظر فيما أبدع من آيات الشعر البليغ ولنخص بالذكر شعر الحكمة الرائعة .

الحكمة فى شعر شوقى

اول ظاهرة واضحة فى شعر شوقى هى التماس الشاعر لغرائب الحكمة فى جميع القصائد والمقطوعات ، وقد آثرتُ أن أقف هذا المقال التقديرى على تلك الظاهرة البارزة فى شعره وهى ليست ملحوظة فى شعر الكهولة وحده ، وإنما ترجع الى ميل

في نفس الشاعر منذ صباه . ومن الجليل أن يكون الشاعر حكيماً ، ولكن الأجل أن ترد الحكمة عفواً بلا تكلف ولا افتعال . وقد وقع لشوقي ابن علقم الأسلوب القصص أحياناً كثيرة في سبيل الحكمة ، وغالب سياق القصائد رغبة في تدوين الكلام الحكيم . من ذلك قصيدته الهجرية التي أنشأها منذ نحو ثلاثين عاماً لتلقى في المؤتمر الشرقي الدولي الذي انعقد في مدينة جنيف سنة ١٨٩٤ . وهي قصيدة مطولة وصف فيها مصر وحكوماتها وأهلها منذ العهد القديم ، وجرى القصص فيها مسلسلاً لم يعقه إلا التنقل إلى الحكمة التي كانت تطرد أحياناً إلى نحو خمسة أبيات مع أنه كان يكفي أن تقع في شطر بيت لتكون لفظة لا ينقطع بها سياق الحديث . مثال هذا كلامه عما لحق مصر من الذل بعد عهد فرعون ، فقد وصل به هذه الأبيات :

إن ملكة النفوس طابغ رضاها فلها ثورة وفيها مضاء
يسكن الوحش للوثوب من الأمر فكيف الخلائق العقلاء ؟
يحسب الظالمون أن ميسودو ن وان لن يؤيد الضعفاء
والليال جوارث مناما جا روا وللدهر مثلهم أهواء
ثم عاد إلى القصص فنظم ثلاثة عشر بيتاً عن رمسيس وسيزوستريس الذي وصفه بالتواضع وكره الكبرياء ، ودعا هذا إلى لقاء الحكمة فقال :

يولد السيد المتوج غصاً طهرته في مهدها النماء
لم يغيره يوم ميلاده بؤس ولا ناله وليداً شقاء
فاذا ما الملقون تولو ه تولى طباعه الخلاء
وسرى في قواده زخرف القو ل يراه مستعذباً وهو داء
فاذا أبيض الهديل غراباً وإذا أبلج الصباح مساء
وقد تطرد الحكمة عند شوقي لغرض مقصود فتأتى رائعة : مثال هذا قصيدته في مشروع ملنر ، وهي قصيدة كان يجب بترها من الديوان لولا حرمة التاريخ ، ومشروع ملنر كان فتنة من أخطر الفتن ، وكان ناس دعوا له واستدرجوا شوقي إلى الدعوة له ، فكتبت ألوته في جريدة «المحرسة» ، فلما تلاقينا اعتذر بأله قال القصيدة مأخوذاً بالحاح بعض الناس . والقصيدة دعوة إلى الرضا بالضعف ، ولكنها من اطرف ما ينوّم به الضعفاء ، ولم أجد في حياتي كلمة باطل صيغت في مثل هذا الأسلوب الطريف :

قد صارت الحال الى جدّها وانتبه الغافل من لعبه
 الليث والعالم من شرقه في هبة الليث الى غربه
 قضى بأن نبى على نابه ملك بنينا وعلى خلبه
 ونبغ المجد على عينه وندخل العصر الى جنبه
 ونصل النازل في سلمه وتقطع الداخل في حربه
 ونصرف النيل الى رأيه يقسمه بالعدل في شربه
 يبيع أو يحى على قدرة حق القرى والناس في عذبه
 أمر عليكم أو لكم في غدّ لا تستقلوه فما دهركم
 نسمع بالحق ولم نطلع ينال بالدين الفتى بعض ما
 فان أنتم فليكن أنكم وفي احتشام الأسد دون القذى
 قد أسقط الطفرة في ملكه يا ربّ قيد لا تحبونه
 ومطلب في الظن مستبعد واليأس لا يجعل من مؤمن
 ليس يرى القارىء أن هذا باطل صوّر في أروع اسلوب ؟ ومع هذا فالشاعر
 حكيم في طبعه حتى حين يتأنق في تصوير الأباطيل ، فاننا مهما رميناه بالدعوة الى
 الضعف واللين لا نستطيع ان ننكر أنه كان أحكم الناس حين قال :
 يا ربّ قيد لا تحبونه زمانكم لم يتقيد به
 فان الزمان قد يفك القيود حين يرى فيها مغالبة لطبيعة الحياة وحقوق الاحياء
 كما بدأ يفعل في معاهدة فرساي .
 وكان يطيب لشوقي أحيانا أن يبدأ قصيدة بالحكمة ثم يطيل كأنما كانت الحكمة
 غرضه المقصود ، وأكثر ما كان يقع ذلك في قصائد الرثاء . ومن اوضح الشواهد
 في هذا ما ابتدأ به قصيدته في كارنارفون :

في الموت ما أعيا وفي أسبابه
أسد لعمرك من يموت بظفروه
إن نام عنك فكل طب نافع
داء النفوس وكل داء قبله
النفس حرب الموت إلا أنها
تسع الحياة على طويل بلائها
هو منزل السارى وراحة رائح
وشقاء هذى الروح من آلامها
كل امرئ رهن بطي كتابه
عند اللقاء كمن يموت بنابه
أو لم ينم فالطب من أذنبه
هم نسين بجيئه بنهابه
أتت الحياة وشغلها من بابه
وتضيق عنه على قصير عذابه
كثر النهار عليه في إنعابه
ودواء هذا الجسم من أوصابه

تلك ثمانية أبيات في الحكمة يجدها القارىء أحد عشر بيتاً حاول الشاعر صبغها بصبغة الكلام الحكيم ، وهذه المقدمة الطويلة تبدولنا مستقلة بعض الشيء لأننا نلحح فيها آثار الافتعال ، ولكننا نقف خاشعين حين نصل الى قوله في وصف ذلك العالم المجهول الذى يُسمى عالم البقاء :

يا صاحب الأخرى بلغت محلة
تزل أفاق بجانبيه من الهوى
نام الصدو لديه عن أحقاد
الراحة الكبرى ملاك أديمه
هى من أخى الدنيا مناخ ركابه
من لا يُفنيك وجد من تلعبه
وسلا الصديق به هوى أحبابه
والسلوة الطولى قوام ترابه
وللقارىء أن يتأمل البيت الأخير فهو من أجود ما قيل في وصف ما بعد الموت من قرار وسكون .

ولشوقى قصائد دعت إليها ظروف وقتية، ضمها كذلك حكماً وقتية فقصيدته في العمال منظومة مفتعلة تحدث فيها عن الانتخابات البرلمانية لأن ظروفها اقتضت ذلك ، واسمع كيف يقول :

أيها الجمع لقد صر
فكن الحر اختياراً
ان للقوم لعيناً
فتوقع أن يقولوا :
ليس بالأمر جديراً
أو سخا بالمال أو قد
أو رأى أمية فاختلب الجهل اختلاباً
ت من المجلس قابلاً
وكن الحر انتخاباً
ليس تألوك ارتقاباً
من عن العمال ناباً ؟
كل من ألقى خطاباً
م جاهلاً وانتساباً
فاختلب الجهل اختلاباً

والقوم الذين يعينهم شوقي هم الانجليز ، والعمال مدعوون ان يراقبوا الانجليز حين ينتخبون النواب ، والمطلوب ان ينتخبوا الدكتور محبوب ثابت ! ولكن هذه المنظومة لم تخل مع ذلك من أبيات حكيمة سبقت اليها فطرة الشاعر الحكيم حين أخذ يقول :

انّ لي نصحاً اليكم إن أذتم وعثاباً
في زمان غيبي لنا صح فيه أو تغايبي
إن اتم من جدود خلدوا هذا التراباً
قلده الأثر المعجز والفن العجاباً
وكسوه أبد الدهر من الفخر ثياباً
أتقنوا الصنعة حتى أخذوا الخلد اغتصاباً
إنّ للمعتق عند الله والناس ثواباً
أتقنوا يحببكم الله ويرفعكم جناباً
أرضيتم أن ترى مصر من الفن خراباً
بعد ما كانت سماء للصناعات وغاباً ؟

وبساطة هذا الشعر من سمات جماله وخصوصاً اذا لاحظنا انه يخاطب به طبقات العمال ، وخطابهم يفرض اليسر واللين في العرض والأداء .
وليس من الغلو في شيء ان نصرح بأننا معجبون أفقن الإعجاب بقوله في هذه القصيدة يوصى بالادّخار اتقاء لحوادث الأيام :

إنما العاقل من يجعل للدهر حساباً
فاذكروا يوم مشيب فيه تبكون الشباب
إنّ للسّنّ لهمّاً حين تعلو وعذاباً
فاجعلوا من مالكم للشييب والضعف نصاباً
واذكروا في الصحة الداء إذا ما السقم ناباً

وقد تبدو هذه الأبيات عادية عند من لا يتأمل فيما تشير اليه من اعقاب سيخوخة ذات الويل والعذاب ، ولندكر دائماً انه يخاطب العمال الذين تغلب عليهم انغفلة عن مصائر من يهرمون وهم معدّيون .

ولا ينبغي ان تقوتنا هذه الفرصة فنهمل التنويه بهذه الظاهرة الغريبة في حكمة شوقي : فان الرجل فيما يظهر من شعره ومن اخلاقه الحيوية كان مأخوذاً بالحرص على طيبات العيش ، وكان مشغولاً بمعاودة التفكير في الأخلاق المعاشية ، والأخلاق المعاشية هذه كلمة نراها انساب ما يُصوّر به حرص شوقي على اسباب الحياة . وانظر قوله في النحل :

مخلوقة ضعيفة من خلق مصورة
يا أما قل ملكها وما أجل خطرها
قف سائل النحل به بأي عقل دبره
يجيك بالأخلاق وهي كالعقول جوهره
تغني قوى الأخلاق ما تغني القوى المفكره
ويرفع الله بها من شاء حتى الحشره

ليتأمل القارئ في قوله « من خلق مصورة » ووصفه الأخلاق بأنها جوهره كالعقول ، يريد انها هبة دقيقة خفية لا يعلم أسرارها غير علام الغيوب ، وهذا معنى لا يدرك الا بدقة التأمل ، فان الخلق الصالح خلق العيش والحياة من الأسرار الخفية ، فكم ناس يُوفّقون في حياتهم المعاشية ، وليست هناك أسباب ظاهرة لما رُمزوا من توفيق ، غير أن الخبير بأحوال العيش يعرف أن هناك دقائق تقية وخلقية يتيسر بها العيش والرزق ، وإن كان أصحابها في ظاهر الأمر من العابثين الماجنين . ولينظر القارئ ايضاً قوله :

أليس في مملكة النحل لقومه تبصرة ؟
مملكته بناه أهله بهمة ومجده
لو التمت فيه بطا ل الدين لم تره
مقتل أو تنفى الكسا لى فيه غير مندره

وهذه صورة صحيحة لحياة النحل ، وفيها عبرة لمن يرون اختلال الجماعات الانسانية ثم لا يعرفون أن أسباب ذلك الاختلال ترجع الى مهادنة اهل البطالة والفراغ.

لنتقل بعد هذا الى الحكمة الفطرية في شعر شوقي ، ونريد بها الحكمة التي تقع في ثنايا القصيد من غير تكلف ولا افتعال . وشواهد ذلك كثيرة ، منها قوله يخاطب الخليفة مهناً بالعيد :

أملك يمنع الأوطان خيراً وانت خلقت من خير طباعاً ؟
 شجاعاً كنت في يوم عصبج توفيقها المحبة والدفاع
 جنحت الى السلام فكان حلماً وقدماً زبن الحلم الشجاع
 ومن صعب الحياة بغير عقل تورط في حوادثها اندفاعاً
 فان البيت الأخير وقع موقعاً طبيعياً لم يشنه تصنع الحكمة ولا اختلاق أسباب
 القول الحكيم .

وقصيدة نهج البردة تفيض بشواهد الحكمة الفطرية ، ولنقرأ هذه الأبيات :

رمى القضاء بعيني جؤذر أسداً ياساكن القاع أدرك ساكن الأجم
 لما رنا حدثني النفس قائلة يا وئح جنبك بالسهم المصيب رُمي
 جحدتها وكتمت السهم في كبدي جرح الأوبة عندي غير ذي ألم
 رزقت أسمع ما في الناس من خلق اذا رزقت التماس العذر في الشيم
 يا لائمي في هواه والهوى قدرته لو شفقك الوجد لم تعذل ولم تلم
 لقد أنلتك اذناً غير داعية ورب منتصت القلب في صمم

والأبيات الأربعة الأخيرة مضمخة بعبير الحكمة ، وأرقها عندي وأوجزها قوله :

« والهوى قدر » . وقد حدثت الدكتور طه حسين عنها مرة فابتسم وقال :

« وعدت مكتوب عليّ ومقدر علي الجبين ! »

ولنقرأ قوله في وصف الدنيا :

يا نفس دنياك تخفى كل مبكية وإن بدا لك منها حسن مبتسم
 فضى بتقواك فاهاً كلما ضحكك كما يفيض أذى الرقشاء بالثرم
 مخطوبة منذ كان الناس خاطبة من أول الدهر لم ترمل ولم تثم
 يفنى الزمان ويبقى من اساءتها جرح بآدم يبكي منه في الأدم
 لا تحفلى بجناها أو جنائيتها الموت بالزهر مثل الموت بالفحم

وقوله في فخار الأصل بالفرع :

قد أخطأ النجم ما نالت أبوته من سؤدد باذخ في مظهر سئم
 نموا اليه فزادوا في العلا شرفاً ورب أصل لفرع في الفخار سئم

وقوله في شمائل الرسول :

حجة لرسول الله أشربها
إن الشمائل إن رقت يكاد بها
قعايد الدير والرهبان في القمم
يُغري الجاد ويُغري كل ذي نسَم

وقوله في صاحب البردة :

مديحه فيك حب خالص وهوى
الله يشهد أنني لا أعارضه
وصادق الحب يملئ صادق الكلام
من ذا يعارض صوب العارض العرم ؟
وانما انا بعض الغابطين ، ومن
يغبط وليك لا يندم ولا يلم

وقوله في يتم النبي :

ذكرت باليتم في القرآن تكرمة
وقيمة التلوؤ المكنون في اليتم

وقوله في المفاضلة بين محمد وعيسى :

أخوك عيسى دعا ميتاً فقام له
والموت جهل فان أوتيت معجزة
وأنت أحييت أجيالاً من الرمم
فابعث من الجهل أو فابعث من الرجم

وقوله في حرب من لم يغن في تقويمهم السلم :

لما أتى لك عفواً كل ذي حسب
والشر إن تلقه بالخير ضقت به
تكفل السيف بالجهال والعمم
ذرعاً وإن تلقه بالشر ينحسم

وقوله في فضل الحرب :

دعوتهم للجهاد فيه سؤدهم
لولا لم نر للدولت في زمن
والحرب أس نظام الكون والأُمم
تلك الشواهد تترى كل آونة
لولا القذائف لم تثلم ولم نُصم
بالأُمس مالت عروش واعتلت سُمره

والحكمة هي قوله : « والحرب أس نظام الكون والأُمم » ، وما بعدهذا الشطر

جری مجرى الشرح والتقرير ، وقوله في فضل العدل على القوة :

واترك رعمسيس : ان الملك مظهره في نهضة العدل لا في نهضة الهرم

ويطول القول لو مضيناً نستقصي ما اتفق لشوقي من روائع الحكمة القطرية ،

وانها لتقع له سائغة مستطابة كالورد النير . وانظر قوله يخاطب من سيدواقبر نابليون :

حصنونا ماشئتمو موتا كمو هل وراء الموت من حصن حصين !

وقوله في ذكرى دنشواي :

شهداك حكمك في البلاد تفرّقوا هيهات للشمل الشتيت نظام
وقوله في صلة مصر بالسودان :

فصر الرياض ، وسودانها عيون الرياض وخلجانها
وما هو ماء ولكنه وريد الحياة وشرانها

وقد جرى الشاعر في هذه السبيل حين ألف رواياته المسرحية ، فليتصفحها
القارئ ليري صحة ما نقول .

وبعد عرض هذه النماذج في صور الحكمة ومواقعها في شعر شوقي يحسن بنا
أن نقرر أن ذلك الرجل استقى تلك الحكم من تجاربه أكثر مما استقاها من مطالعته:
فقد عاش زمناً عيشة محرّجة مضجرة لا يعرفها إلا من ابتلى بمثلها أو بما يقاربها ،
وما ظن القارئ بمن يعاشر الملوك ويذوق ما في كؤوس السياسة من علقم وصاب ؟
لهذا نراه صادقاً غير متكلف حين يقول :

أخا الدنيا ، اري دنياك أفعى	تبدل كل آونة اهبابا
وأن الرقط يقط حاجعات	واترع في ظلال السم نابا
ومن عجب تشيب عاشقها	وتغنيهم وما برحت كعابا
فرن يفتّر بالدنيا فاني	لبست بها فأبليت الثيابا
لها ضحك القيان الى غبي	ولي ضحك الليب اذا تغابا
جنيت بروضها ورداً وشوكاً	وذقت بكاسها شهداً وصابا

نكي مبارك





﴿ لوحة الرخام التذكارية ﴾

وهي من عمل المثال المسيو سيان وستُعلق في كلية الآداب بالجامعة المصرية

ذكريات

عن حياة المدرسة ومدرسة الحياة

— ١ —

أود أن أرفع جانباً يسيراً من الستار الذي أراحه تطاول الزمان على بعض النواحي من تلك العبقريّة التي تألّق نورها في سماء العروبة حيناً من الدهر ، لا يقل مداه عن ١٩٠ يوماً و ١٧،٠٠٠ يوم ، أي من أول أكتوبر سنة ١٨٨٥ الى اليوم الرابع عشر من مثله في عامنا الحاضر .

ولعلّي أتمكن من إرسال شعاع ضئيل على ما أحرزه «شوق» من سعود متواصلة، وتوفيقات متوالية ، منذ كان يتلقى العلم الى أن بويغ بامارة الشعر .

سأقصر كلامي على طائفة قليلة من ذكرياتي عن الخالد « شوق » في حياة المدرسة وفي مدرسة الحياة .

— ٢ —

فلنرجع الى سنة ١٨٨٣ . وهي السنة التي تشرّفتُ فيها بدخول الفرقة الرابعة (أي السنة الأولى بالاصطلاح الحديث) من مدرسة الادارة التي صححوا (في سنة ١٨٨٦) اسمها هذا المغلوط فجعلوه مدرسة الحقوق (وهو اسم مغلوط أيضاً . ولذلك بيان ليس هنا محله) .

كانت المدرسة قد انتقلت من مقرها القديم المعهود في سراي مصطفى باشا فاضل (بدرب الجاميز) الى دار البدر اوى الباقية الى اليوم بشارع سوق الزلط (من قسم باب الشرعية) على مقربة من دارالسادة الاشراف الاماجد آل العروسي،الذين آلت الى أحدهم مشيخة الازهر .

وفي العام التالي أقبل فوج جديد من التلاميذ للحلول محلنا في الفرقة الرابعة . وفي الذي بعده جاء فريق آخر ممن أسعدتهم المقادير بالانتظام في سلك هذه المدرسة العالية.

من الطبيعي أن يتطلع أبناء الدار بشيء من الزهو والخلاء الى الطائرئين عليهم والمنضمين اليهم .

كان في جملة الوافدين سنة ١٨٨٥ ، فتى نحيف نحيل ، هزيل ضئيل ، قصير القامة ، وسيم الطلعة (تقريباً) ، بعيون متألقة (تحقيقاً) ولكنها متقلبة (كثيراً) . فاذا نظر الى الارض دقيقة واحدة ، فللسماء منه دقائق متبادية . وإذا تلفت صوب اليمن ، فلا يلبث أن يرمى ببصره نحو الشمال . وهو ، مع هذه الحركات المتتابعة المتنافرة ، هادئ ساكن وادع كأنما يتحدث بنفسه الى نفسه أو يتلغى مع عالم من الارواح ما كان يلابسنا فيما تأخذ فيه من اللهو والمرح ، ولا يتهاف معنا على تلف الكرة بعد الفراغ من تناول الطعام .

هذه صورة مصفرة لاحمد شوقي عند أول عهدي به في حياه المدرسة

— ٣ —

كان المرحوم الشيخ محمد البسيوني البيباني من علماء الازهر المعدودين . وقد آتاه الله بسطة في الجسم والعلم فكان بديناً فطيناً ، وكان قصيراً فوق قصير لانه كان طويلاً مكبراً ، لا تحطئه النكتة البارة اللاذعة . وكان يدرس لنا فنون البلاغة في كتاب من تصنيفه هو « حسن الصنيع في المعاني والبيان والبديع » . أما خارج المدرسة ، فكان متخصصاً بنظم القصائد في مدح الخديو توفيق ، كلما حل موسم أو أطل عيد . وكان إماماً له في الصلوات ، إلا صلاة الفجر .

ما لبث أن رأى في تلميذه شوقي بواكير العبقرية وبوادر المواهب الربانية . فأنشأ الاستاذ يعرض قصائده على تلميذه قبل أن يرسلها الى المعية السنية فالى « جريدة الوقائع المصرية » وغيرها من الصحف العربية . وكان شوقي ، ببساطة التلميذ الناشئ ، يشير بححو هذه الكلمة وتصحيح تلك القافية وحذف هذا البيت وتعديل ذاك الشطر . والاستاذ يفتبط بقوله وينزل على رأيه .

وأحسن ما أذكره للاستاذ البسيوني ، رحمة الله عليه ، انه كان يتحدث بذلك الينا والى الفرق المتقدمة علينا (وفيها أصحاب السعادة عثمان باشا مرتضى وابوبكر يمحي باشا وعلى ثاقب باشا وشاكر بك احمد) دون أن تأخذه العزة بالاثم أو أن تغريه الكبرياء الملازمة للمدرس ، بانكار الفضل الذي منحه الله للدارس .

فهذه أول سعادة أحرزها شوقي .

على أن الاستاذ البسيوني تحدث بهذا النبوغ الباكر الى صاحب العرش ، وأفهمه أن بين أثواب الصغير احمد شوقي براعة نادرة وذكاء رائعاً ، وأنه خليق برعايته العالية ليكون زهرة يتضوع شذاها في مشارق الارض ومغاربها .

وكانت هذه الشهادة من أكبر الاسباب التي حفزت الخديو توفيق في سنة ١٨٨٧ الى إرسال شوقي على نفقته الخاصة لاتمام الدراسة العلمية في باريس ولتغذية مواهبه الغريزية بما يراه في الغرب من روائع البدائع . وقد تحققت له وفيه الآمال . فكانت هذه ثانية السعادات .

— ٤ —

عاد شوقي الى مصر .

فكان في جملة المستخدمين في ديوان المعية السنية . وظهرت له في الخديو توفيق تلك الامداح التي سارت بها الامثال وتغنى بها الركبان .

لكن الله اختار الخديو توفيقاً الى جواره في أواخر سنة ١٨٩١ .

وجلس على الاريكة ولده وولى عهده صاحب السمو الخديو عباس الثاني ، (في ٨ يناير سنة ١٨٩٢) وكانت نزعتة افرنكية ، لانه تلقى العلم في « أكاديمية ترزيانوم » بعاصمة النمسا ، أدرج وأمضى زمان الصبا في ربوع أوروبا فلم يكن لصاحبنا شوقي سوق رائجة عنده ، بل أدرج في سلة المهملات الذين يصح عليهم رأى المرحوم محمد بك عثمان جلال ، حينما كتب على باب غرفة شاعر الخديو إسماعيل : « إنما نطعمكم لوجه الله » .

هكذا ، أخذت منزلة شوقي في التبدل وأخذ نجمه في الأفول . حتى انه كان كثيراً ما يطلب متى أن أوصى به صديقي المفضل حمزه بك فهمي الذي كان انتقل من نظارة الداخلية الى رئاسة « أفلام عربي ديوان خديوى » . وهو من أهل الفضل الصحيح ومن ارباب الأدب المتين ، وصل الله في حياته .

— ٥ —

دار الزمان دورته .

وبعثت الظروف السياسية الخديو عباساً الى أن يتذوق الادب العربي . فعاد شوقي يتدرج في الرجوع الى مكانته حتى وصل الى الذروة العليا ، بل الى الغاية التي

ليس وراءها غاية . فاصبح من اقرب المقربين ومن اصحاب الكلمة المسموعة والرأى النافذ .

وإذا بى أرى صديقى المفضل حمزة بك فهمى يخاطبني فى استراء شوقى إياه ا
والحياة مبادلة ، والدهر أخذ وعطاء .

— ٦ —

كان شوقى يسكن فى دار أبيه ، وهى التى انتهت اليها كل الثروة الضئيلة الباقية عن اجداده . فكان فى اول أمره يرى من تمام سعادته انه لا يجيئه الجأبى اوصاحب الملك فى آخر كل شهر لمطالبته بكراء البيت ا وهذه الدار القديمة لا تزال قائمة وراء مسجد الشيخ صالح ابى حديد فى خط الحنفى . ويا بعد ما بينها وبين ما أنشأه هو من كرمة ابن هانى فى المطرية ، تلوها الكرمات الثلاث فى الجيزة ، الى عش البلبل فى طريق الاهرام .

وكان بمجوار تلك الدار القديمة رجل من اهل الثروة واليسار ومن ارباب الفضل الصحيح والوقار التام ، هو المرحوم حسين بك شاهين . رزقه الله بثلاث بنات هن عنوان الصيانة والأدب والكمال . وكان الشباب الذهبى من « ابناء الذوات » الذين ذهبت نروتهم بفعلهم او بفعل آبائهم الاقربين ، يتهافون عليه . فيتأبى ويتعذر . ويقول لى وللمرحوم محرم بك رستم (صهر صديقى بل أخى الابى الاكل لبيب بك البتانوفى) ان هؤلاء المتهافنين لا يخطبون الفتيات ، ولكنهم يترفقون الثروة الطويلة المريضة التى ستؤول الى كل واحدة منهن بعد حين قريب أو بعيد .

وشاء ربك ان يفوز ذلك الماجد المفضل بمصاهرة ثلاثة من افضل الناشئة المصرية : احدهم شوقى ، والثانى احمد بك عمر المهندس البارع التزيه المستقيم ، وثالث الثلاثة السرى المرحوم يعقوب حلمى بك .

هكذا أنعم الله على شوقى بالزوجة الصالحة بكل معانى الكلمة . فاستراح من متاعب الحياة البيتية ، ومن مصاعب العيشة المادية . فتفرغ لاستمداد الفيض النورانى وتلقى الالهام الربانى ، حتى تفرد بالبراعة التى ليس بعدها براعة . وانبت لمصر ، والحمد لله ، نباتاً حسناً .

— ٧ —

من السعادات التى أنعم الله بها على « شوقى » سعادة لم يشركه فيها شاعر آخر . لم يهيج احداً ، ولم يقل هجراً ، وكان من اكبر أنصار العروبة ومن اعظم خدام

الاسلام . بذلك تنطق قصائده وتشهد مواقفه . وذلك خارج عن دائرة هذه الذكريات ، فأترك الكلام عليه لغيري .

بيد اننى لا أرى بأساً بالإشارة الى القصيدة التى تقرب بها الى الله والى رسوله المصطفى عليه الصلاة والسلام . فقد نظم « نهج البردة » ونزّهاها عن خرافات القصص وأكاذيب المحدثاح .

طالما عارض الناس « بردة » البوصيرى فى القديم وفى الحديث بمئات ومئات من المنظومات . لكن الصيتبقى لهذه « البردة » وحدها الى الآن . على أن قصيدة شوقى ، وإن لم تزعجها عن مكانتها ، فإنها قد نالت شرفاً ليس له نظير . ذلك بان الأستاذ الأكبر شيخ الأزهر وخاتمة المحدثين فى مصر ، الشيخ سليم البشرى رحمة الله عليه ، مع جلالة قدره وسمو مركزه ورفيع مقامه ، قد تولى بنفسه وبقلمه شرح هذه القصيدة . وقد صاغها شوقى ، وهو لا يزال فى سن الفتوة . لكن براعته فيها جعلت شيخ الشيوخ يعرف فضلها ويقدر نافعها ثم يتوفر على شرحها . وما رأى الناس لذلك مثيلاً قبل شوقى .

— ٨ —

عند ما جلس المغفور له السلطان حسين كامل على عرش مصر ، كان السواد الأعظم من أبناءها يعاديه ، بسبب الظروف السياسية التى احاطت ارتقاءه الى الأريكة . لكنه ما لبث بكياسته وحسن سياسته ان جعل كل من فى مصر مخلصاً فى ولائه ، يترنم بحمده ، ويأسف على أن ولايته للأمر جاءت عند الاقتراب من نهاية العمر .

وتلك من نعم الله التى لا يظفر بها إلا الأقل من قليل من الناس . فكان شوقى اشجع الناس بمصر فى ذلك العهد المملوء بالخاوف والاهوال ، والذي كانت السلطة العسكرية البريطانية قابضة فيه بيد من حديد على كل النواصى والاقدام ، بل على الافكار والاهوام . فقد صرح شوقى السلطان حسيناً بما كان موضوع التهامس بين كل اثنين يلتقيان ، إذ أرسل اليه قصيدته المشهورة التى أشار فيها الى الحال القائمة بقوله :

(ان الرواية لم تتم فصولاً)

والتي يقول فيها :

أأخون إسماعيل فى أبنائه ولقد ولدتُ بباب إسماعيل ؟

قامت فيامة السلطة العسكرية البريطانية لهذا النذير واضطربت كل الاضطراب ، لانها خشيت أن تنتشر بقعة الزيت في رقعة مصر بسبب هذه الصيحة الشوقية التي كانت لها أثرٌ بعيد في النفوس ووقع فعّال في القلوب ، فأمرت بنفيه . فتخير الاندلس مُقاماً .

فكان في عمل السلطة إحسانٌ له وللشعر والعروبة من حيث قدّرت الأساءة واطفاء النور .

من هناك كاتبني شوقي يطلب كتباً يستعين بها على تعرف مجد الاسلام وفخر العروبة في الاندلس . فبادرتُ وارسلت اليه « نفع الطيب » و « المعجب بتلخيص أخبار المغرب » و « قلائد العقيان » وأيضاً . . . كتاب رحلتى « السفر الى المؤتمر » . ماذا أقول عن دهشتى بعد أسبوع ؟ أعادلى الرقيب العسكرى تلك الكتب ومعها كلمة فيها ملاحظة على لُذ هذا الصنيع من موظف بالحكومة قد لا يتّسق لواجبات الوظيفة !

وبعد ذلك بيومين أو ثلاثة ، جاءنى الصديق عديل شوقي بك وهو احمد بك عمر لا توصل الى المرحوم رشدى باشا حتى يسعى عند السلطة في عدم إعادة المال الذى كان ارسله الى شوقي ليعيش به في بلاد الغربية . فكأنها كانت تريد أن يتكفف شاعر الشرق رغم ثروته الطائلة أو أن يموت هو وأولاده من الجوع في بلاد الغرب ! وشاء ربك تكميل مساعى رشدى باشا بالنجاح . فاخذ احمد بك عمر يبعث بشىء من مال شوقي الى شوقي في منفاه ، ولكن في اوقات معلومة وبمقادير محدودة .

— ٩ —

لا أريد ان اتحدث هنا عما كان المرحوم السلطان حسين يوالينى به من أسباب الحفاوة والالتفات ، حتى انه اختارنى بمثابة مستشار فنى لكريمته النبيلة ، صاحبة السمو سنيدي الاميرة قدرية هانم . لكننى أتحدث الآن عن امر يخصّ شوقي أيام منفاه .

فقد كان السلطان حسين يدعو الذين استخلصهم لوده ، فرادى وجماعات ، لتناول الغداء معه من حين الى حين في سراى عابدين . وحسبى ان اقول إنه بعد الفراغ من الطعام ، تفضل فدعانى الى تناول القهوة بالبهو الكبير . فجلس في الركن الشمالى الشرقى والمرحوم محمود شكرى باشا الكبير على يمينه ، وصاحب هذه الذكريات على يساره .

أخذ يتحدث عن النهضة العلمية وعن التطور في الحركة الأدبية. فاستعرض الرقي الذي حدث في الصحافة وفي الأغاني القومية . ودار الكلام بنوع خاص على المرحوم اسماعيل صبرى باشا وعلى ما أوتي من الفتوح في هذه الابواب التي جعلته إمام الناظمين في كل فن من فنون العهد القديم ، وفي كل مطلب من مطالب العصر الحديث .

ثم سألتني — رحمه الله — عن ترجمة كلمات كثيرة ، ومنها لفظة Mentalité . فقلت له ان هذه الصيغة قد استحدثها القوم لمعنى خاص يقاربه في العربية قولنا « ذهنية » ، « عقلية » .

وحينئذ ، انتقل الى الكلام عن طرافة التفنن عند شعراء الافرنج . ثم سألتني : أوجد بين العرب الآن من في قدرته أن يماشهم مع هذه « العقلية » الجديدة وهذه « الذهنية » الحديثة ؟

فقلت : ان هذه المزية قد تفرقت في كثير من شعراء العصر ، ولكنها اجتمعت كلها في شوقي ...

وهنا ظهرت لي إشارة من المرحوم محمود شكرى باشا ، فتشجعت بها على المضى في الكلام ، وقلت لمولانا السلطان :

ان شوقي ممن تزدان بهم الدول ، وإن مثله لو كان في زمان الخلفاء لتخاطفته دمشق وبغداد وقرطبة ...

فكررت الغمزات من ناحية شكرى باشا ... بالموافقة والمطابقة .

فاندفعت أنفنى بحاسن شوقي ، وبما أفاضه على العروبة والاسلام من نقشاته ، وبما منحه للشعر والادب من نفحاته ، وان هذه وهذه حسنات باقيات وآثار خالدة . وهنا تزايدت الاشارة الرقيقة الدقيقة من المرحوم شكرى باشا ...

فعاودت الهجوم على الموضوع ، سيما وقد آنت من السلطان ما يشعر بالرضى والقبول . فقد التزم الاطراق والاصغاء في سكوت وسكون .

وهكذا تماديت حتى الى كلمة فيها جراءة . شجعتني عليها ما رأيته من موقف السلطان . فقد قلت ما معناه بالاختصار :

أصبح أن تبقى مصر محرومة في عهدك السعيد ، بلبلها الغريد ، وان يرفرف هذا الطائر الفريد الوحيد بجناحيه على قرطبة وطليلة وعلى اشبيلية وغرناطة ، بعد ان خرجت منها العروبة غروج الأرواح من الابدان ؟ ان الذي ترمقه الثقافة

العربية والقومية المصرية من ابن اسماعيل ومولى النيل ان يعمل بالخطة الكريمة التي رسمتها اريحته النبيلة لنفسه التي صاغها الله من الخير للخير ، فيعيد الى القاهرة روثها المجتمع في أثواب شوقي .

وهنا تكررت الاشارة وتوالت الغمزات من محمود باشا شكرى . فأدركت اننى قد اكون تجاوزت الحد . ولكن السلطان ما زال مصغياً ، كأنه يطلب المزيد من الكلام . وماذا عسيت أن أقول بعد أن قد استوعبت كل ما فى الصدر ، بل كل ما يجيش بالخاطر ؟ فبقيت ساكناً منتظراً تحول الحديث الى موضوع آخر من السلطان نفسه ، او صدور اشارته بالانصراف .

وقضى ربك بالخلاص من هذا المأزق . فبعد برهة قصيرة ، وقف السلطان . فوقفا . ثم تقدمت فقبلت يده الكريمة وانصرفت .

وقابلت فى الزدهة الصديق الفضال احمد بك احسان . وفيما أنا أرفقه عن نفسه بمحادثته ، وأتنفس الصعداء لخروجى من ذيك الموقفه ، إذا بالمرحوم شكرى باشا يهرول ورائى . ثم طفق ينهال بتعنيى على اندفاعى فى تقرير شوقى رغم الاشارات المتوالية التي كان يبديها لى من حين الى حين للتخفيف من غلوائى فى الحديث ! فلم يكن من سبيل للاعتذار سوى ان السلطان كان مصغياً تمام الاسغاء ، وأننى فهمت من اشاراتك أنك راض عن صنعى تمام الرضاء ، بل أنك قد تكون سبقتنى الى تقرير هذه فهذا عذرى ، وما فعلت سوى نصيح السلطان بما انطوت عليه سريرتى واستقر فى صدرى .

* * *

است أدعى ان كلامى كان له أثر فى نفس السلطان . ولكن الذى أعرفه ان الله سبحانه وتعالى جعله يضيف حسنة كبيرة الى حسناته الكثيرة ، فأصدر أمره بعد ايام الى المرحوم رشدى باشا ليسعى باسمه الكريم لى السلطة فى ارجاع شوقى الى وادى النيل . وقد كان .

— ١٠ —

أكبر سعادة نالها شوقى ، بل سعادة السعادات التى أفاضها الله عليه فى الثروة والجاه وكل مطالب الحياة ، ان الشعراء المتعادين فى كل زمان ومكان قد اتفقت كلمتهم فى جميع

أقطار العروبة وفي عصرنا هذا على تمجيد شوق ومبايعة في حياته بالامارة عليهم .
فصار باقرارهم جميعاً (أمير الشعراء) حقاً . وهو لقب لم ينله قبله إنسان ،
وهيئات ، هيئات ان يتجدد مثل هذا الحادث في مستقبل الايام !

فالبيعة الصحيحة بشروطها المعتبرة شرعاً وسياسة ، قد انعدمت في كل بلاد
الشرق . ورأينا الخلفاء في ثنايا التاريخ يتلقفون هذا اللقب وهذا المنصب بطريق
الوراثة ، يضاف اليها صيغة صورية للبيعة ، الى ان انعدمت هذه الصيغة الشكلية
أيضاً ، باستيلاء السلطان سليم العثماني على مصر وملحقاتها واغتصابه الخلافة في اوائل
القرن العاشر للهجرة .

ثم تبادت السنون والقرون الى ان أتاح الله لنا ان نرى البيعة في أعلى مظاهرها
ومسانيها ، وعلى اكمل مشاهدتها ومجاليها في الحفلة النادرة المثال التي توارد
الشعراء اليها من سائر الاقطار وبايعوا فيها شوق بك مبايعة رسمية جهرية باعتماده
اميراً لهم . فقد خاطبه حافظ عن نفسه وعنهم بقوله :

أمير القوافي قد أثبت مبايعاً وهدي وفود الشرق قد بايعت معي
وهذا اللقب كان قد اطلقه عليه الناس قبل تلك البيعة الصحيحة بزمان طويل .
ولا غرو ، فان « السنة اخلق اقلام الحق » .

— ١١ —

في انتظار أمير الشعر الجديد ، الذي قد لا يأتي به الزمان ، يحق للجيل الحاضر
أن يفاخر الاجيال الماضية ويباهي الاجيال الآتية بأنه حاز الشرف الاكبر بظهور
امير الشعراء فيه . وفي ذلك ما فيه من معاني المجد الدائم لمصر في هذا العصر .
وسبحان الحق الباقي لا إله إلا الله وحده لا شريك له .

— ١٢ —

والى الله تعالى نتوجه بقلوبنا داعين ان يديم لمصر مولانا الملك المعظم فؤاد
الأول ، فقد اصبح عصره زينة العصور بما يتوالت فيه من النهضة وما يترادف
من وجوه الاصلاح في أسباب الحياة وفيها الأدب العربي القومي . وذلك كله
بعنايته العالية ، وبارشاده الكريم أقر الله عينيه بسمو ولي عهده أمين .

الصحر نكي بامنا

الاضطراب في شعر شوقي

قالوا إن سيدة ذهبت لتوديع ولدها ، وقد اعتزم سفرًا طويلًا ، فلما تحرك القطار ودعته بأبلغ قصيدة شعرية عبّرت بها عن آلامها وتباريحها القاتلة . على أنها لم تنظم في هذه القصيدة الرائعة بيتًا واحدًا ، ولم تنطق فيها بكلمة واحدة .

ولكن قصيدتها كانت — رغم ذلك — لا تقل عن أبلغ قصيدة قالها شكسبير أو المعري ، ولم تكن قصيدتها تلك إلا زفرة زفرتها ودمعة ترقرت في عينيها . ولا زلت أجدني في موقف وداع هذا النابغة الراحل إلى دار الخلود ، لأستطيع أن أودعه بغير هذه القصيدة الصامتة التي تلخص في زفرة حارة ودمعة مترققة وذهول يستولى على النفس حتى ليكاد ينسبها كل واجب .

ولقد همت مرارًا أن أكتب شيئًا عن الزعيم الراحل الجليل ، فلم استطع إلى ذلك سبيلًا ، فإن الكتابة عن شوقي وتحليل شعره ودرس أدبه تتطلب وقتًا وبقظة ودقة .

أما الوقت فأصدقائي الأدباء يعملون بأنني أستطيع أن أظفر بكل شيء في هذه الأيام إلا الوقت . وأما البقطة فقد حل محلها الدهول بهذا الخطب الجلل . وأما الدقة فلا سبيل إليها في مقام تستولى فيه الدهشة ويستبد الدهول بالعقول .

وقد همت بكتابة كلمة عن روايات شوقي بك ثم أرجأت كتابتها إلى حين ، وهمت أن أصف آخر ليلة قضيتها مع شوقي بك فنعمني الأسى والحزن عن كتابة شيء ، وأرجأت ذلك كله إلى الظروف والمناسبات التي أرجو أن تكون قريبة .

وقد حفزني إلى كتابة هذه الكلمة السريعة القصيرة عن الأخلاق في شعر شوقي بك أن كثيرًا من الأدباء نعوا عليه الاكثار من ذكر الأخلاق في شعره وعدوا ذلك عليه من المآخذ والعيوب ، وظن بعضهم أن شوقي كان يذكر الأخلاق في شعره بمناسبة وبغير مناسبة ، وقد كان جديرًا — في زعمهم — أن يقتصر على ذكرها مرة أو مرتين . ولهم العذر في ذلك فإن أكثر من طابوا عليه ذلك قوم لا يفهمون الأخلاق إلا فهمًا سطحيًا . ولو أنك سألت أكثرهم أن يعرف لك

الاخلاق كما يفهمها لما زاد على تعريفها بأنها مجاملة الناس وارضائهم والرضوخ لتقاليدهم ومصطلحاتهم الحقيرة التي يتقنها أبعاد الناس عن الاخلاق .

ولو أن شوقي كان ميعنى بهذا النوع الحقيق من المواضع والمجاملات التي تعجب الناس وترضيهم لما كان لشعره أية قيمة .

بلى ان شوقي كان يشيد بذكر الاخلاق ويرى أن الأمم لا ترتقى بغيرها . ولو وقف أكثر شعره على تقرير فضل الاخلاق لما كان مبالغاً ولا مكثراً .

وليس شوقي وحده هو الذي عتني نفسه وملاً شعره بذلك فقد شغل المعري نفسه ووقف أكثر لزومياته على نعي الأخلاق ، وقلما تمر بك صفحة من اللزوميات من غير أن تسمع فيها صرخة داوية تكاد تصم الآذان في نعي الأخلاق والتبرم بلثوم الناس وصغار نفوسهم فقرأه مرة يقول :

جنوا كبار آثام وقد زعموا أن العناصر تجنى الخلد في النار
أو يقول :

لو غربل الناس كيما يعمدوا سقطاً أو قيل للنار : « خصى من جنوا » أكلت
أجسادهم ، وأبت أكل السرايل — كما يقال — أو الطير الأبايل
أمرأ يقود الى جبل وتخيل
سبحان من ألهم الاقوام كلمهم
أو يقول :

كتاب محمد ، وكتاب موسى هدت أمماً فما قبلت ، وبارت
والنجيل ابن مريم والزبور نصيحتها ، فكل القوم بور
أو يقول :

والحق يهمس بينهم ويقام للسوءات منبر
أو يقول :

إذا قلت المحال رفعت صوتي وإن قلت اليقين أطلت همي
أو يقول :

يفنون مني معنى لست أحسنه فإن صدفت عرتهم أوجه عبس

أو يقول :

هم أسارى منايهم ، فما لهم إذا أنام أسيرٌ لا يفكون

أو يقول :

فأف لعصرهم - نهار وحنس - وجنسى رجال منهم ونساء

أو يقول :

ريبت شبلا ، فلما أن غدا أسداً عدا عليك ، فلولاً ربه أكلك !

ثم ماذا ؟ لو شئت لمأت صفحات هذه المجلة وهى كثيرة بشعر المعرى وحده فى التبرم بأخلاق الناس ، وقد ذكرت من ذلك شيئاً فى « رسالة الغفران » ، والمعرى يعد شاعر واحد له أشباه كثيرون فى العربية وغيرها من اللغات ، فهل نرى أحداً من هؤلاء قد أسرف حين ملأ أكثر شعره بالأخلاق وتغنى بها ورأى بحق أن الأمم لا بقاء لها بغير الأخلاق :

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هموا ذهب أخلاقهم ذهبوا
الأمم الأخلاق ! صدق شوقي بك الذى خبر عصره وبلى أخلاق معاصريه وعرف قائصهم ورذائلهم وبرم بصغار نفوسهم وتآلم من دسهم ونفاقهم وقد رأى بعض الأدباء يلتصون بمعونته المادية والأدبية ، فإذا ظفروا بها فضلوها على كل شعراء الدنيا من قدماء ومحدثين ، وحلوه أسمى ألقاب العبقرية والخلود ، فإذا انقطع عنهم فيض معونته تقضوا كل كلمة كتبوها ثناء عليه وملأوا الدنيا ازراء به وتحقيراً من غير أن يستشعروا أى خجل فلا غرو أن نسمع هذه الصرخة تدوى من فم شوقي فتعلاً الآفاق وهو يقول :

ولا المصائب إذ يرمى الرجال بها بقاتلات إذا الأخلاق لم تُصب
وقد كان شوقي يؤمن إيماناً وثيقاً لا يتسرب اليه لمحة من الشك أن الأخلاق هى كل شئ ، وأن كل مصيبة مهما جلت هينة ميسورة يسهل المتغلب عليها إذا كانت عدة الأمة أو الفرد الخلق المتين .

فهو يقول فى رواية « أميرة الأندلس » (ص ١٠٣) : فكم من تاجر بمنزلة أبى الحسن قد نكب فذهب عنه كل شئ إلا الخلق ، ثم لم تمض مدة من الشهور أو الأعوام حتى جمع الناس ومحدثوا أن التاجر فلاناً تغلب بالخلق على نكبته فعاد دولاب تجارته

كأمس عظيم الحركة عظيم البركة ، ومثل أبي الحسن في خلقه وأمانته وشرف اسمه في الأسواق لا يبعد أن يقوم من هذه السقطة ورجلاه في العافية .

على أن شوقي لم يشغل نفسه بالاخلاق في شعره ونثره فحسب بل شغل أكثر مجالسه بالتحدث عنها .

وقد كان شوقي يرحم الله — يتحدثني في آخر ليلة قضيتها معه عن ألمه الشديد وحزنه العميق على فساد الاخلاق وصغار النفوس ، فأنت تراه قد شغل شعره ونثره ومجالسه بهذه الرسالة العالية التي أداها أحسن أداء ، ولم يغفل أدائها في أية فرصة سنحت له ، وما أروع قوله في نشيده الخالد :

على الاخلاق خُطوا الملكَ وابنوا فليس وراءها للعزُّ ركنٌ
كذلك قامت نهضات الامم الحقيقية وأفلح دعائها وقادتها بالاخلاق ، وبالاخلاق وحدها تجمعت دعوة الرسول ، فلم يتردد حين لامه عمه عبد المطلب على ثباته في دعوته التي ألبت القبائل عليه ، فأجابه الرسول من غير تردد ولا رهبة :

« والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الامر أو أهلك دونه ما تركته » .

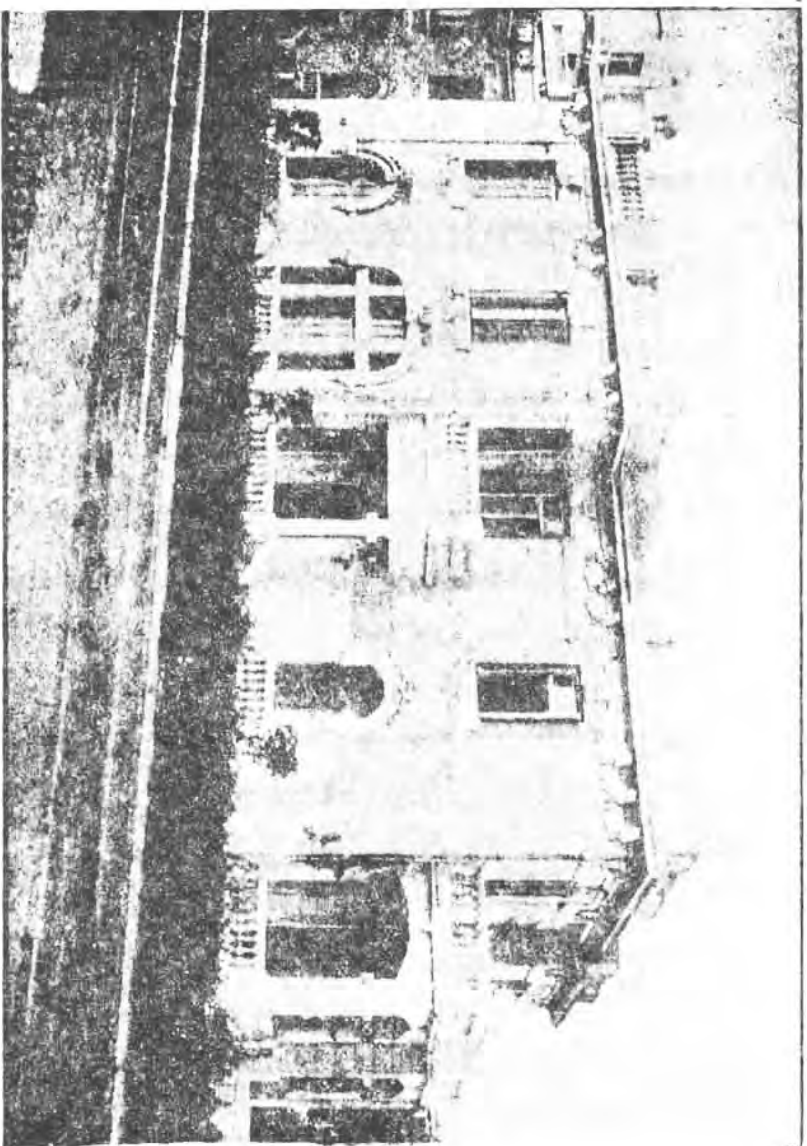
وبهذا الخلق المتين مدحه الله في كتابه الكريم فقال :
« وانك لعلى خلق عظيم »

هذا الخلق العظيم هو الذي تغنى به شوقي في شعره ونثره وردده في نومه وصغوه ، ورأى أن نهوض الأمم لا يتحقق بدونه وان كل شعب يفقد هذه الميزة الكبرى سائر في طريق الفناء والاضمحلال :

وليس بعاصي بنيان قوم اذا اخلاقهم كانت خرابا
رحم الله شاعر الاخلاق رحمة واسعة

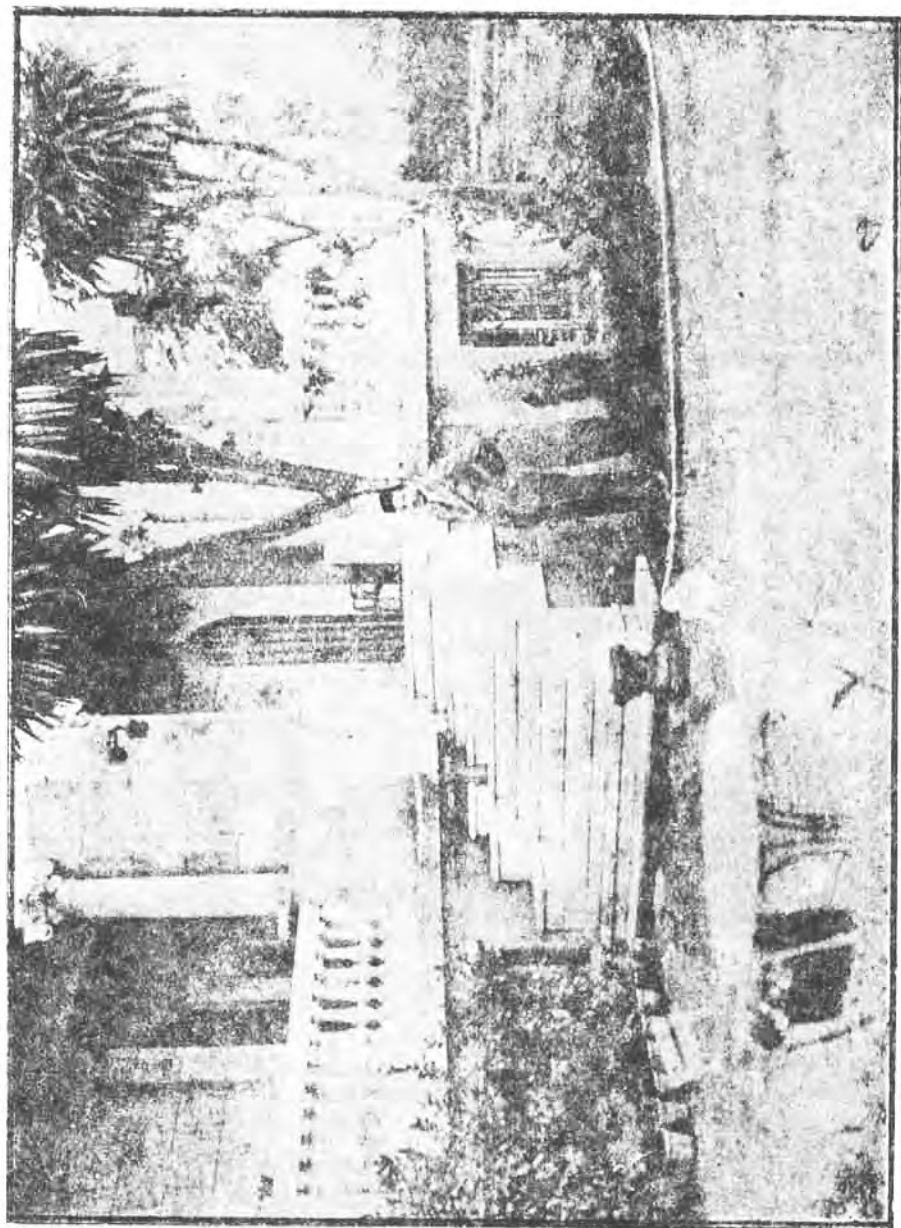
لامل كبرلي

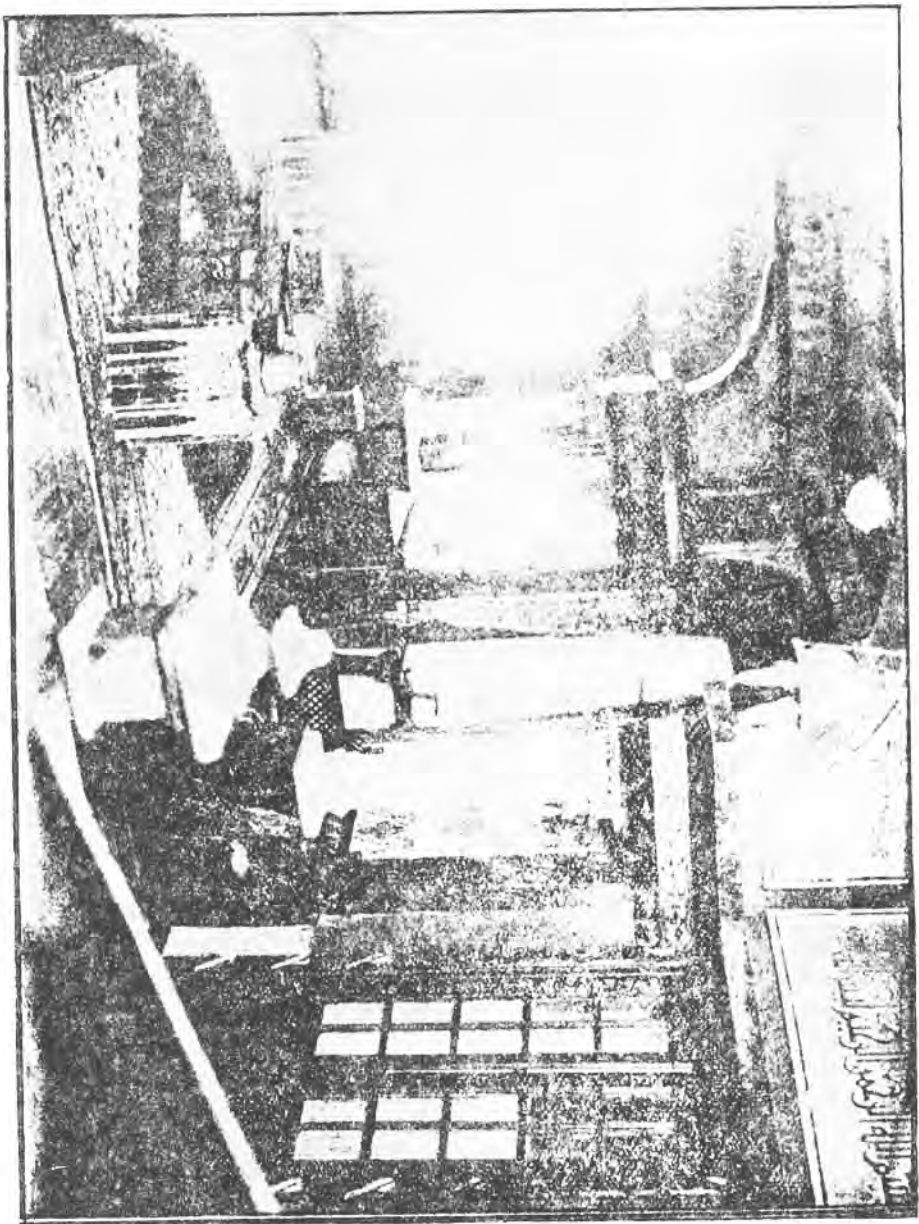
سكرتير رابطة الادب الجديد



كرمة ابن هاني : منظر منزل شوقي بك من الخارج ، وهو واقع في شارع مبرح بن شهاب بالجيزة

في حديقة كرمة ابن هاني على ضفة النيل





الهدوء العربي في كرمة ابن هاني